سجل تحت رقم 95/08
بتاريخ 31 ماي 2008
الرقم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم : اللغة والأدب العربي

مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم

تخصص : الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية

بعنوان

المعتمد بن عباد شاعرا

إعداد الطالبة :

بن منصور آمنة

بإشراف :

د/ كروم بومدين

لجنة المناقشة :

- أ.د. شريفي عبد اللطيف أستاذ التعليم العالي - جامعة تلمسان رئيسا
- د. كروم بومدين أستاذ محاضر - جامعة تلمسان مشرفا
- د. بن هاشم خناثة أستاذة محاضرة - جامعة تلمسان عضوا
- د. بن أعمر محمد أستاذ محاضر - جامعة تلمسان عضوا

السنة الجامعية 1427-1428هـ/ 2006-2007م

الإهداء

*- الإهداء الأول إلى : والدي الكريمين .

*- الإهداء الثاني إلى : الذي أرجو أن تصفو له الأيام

و يكون ذخرا للإسلام

ابني عبد الرحـــــــــمن .

و إلى روح المعتمد بن عباد رحمه الله .

****

كلمة شكر

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف

الدكتور كروم بومدين ، على نصائحه القيمة،

و على تحمله عناء الإشراف على هذا البحث

قراءة و تصويبا ، كما أقدم خالص شكري لأعضاء

لجنة المناقشة الموقرة على تجشمها عناء القراءة و النقد

و التصويب ، كما أشكر كل من ساعدني و أخص بالذكر

زميلي في العمل الأستاذ صوفي مرزوق سام .

****

مقدمـــــــة

بسم الله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده ، و بعد :

فقد ظلت الأندلس لثمانية قرون الجنة التي تتطلع إليها النفوس ، و القبلة التي يتوجه إليها جموع الناس على اختلاف مناهلهم و مشاربهم ، و على الرغم من كل تلك الصراعات التي ما فتئت تهددها بالانهيار ، استطاعت أن تبقى صامدة حتى بعد سقوطها ؛ بآثارها التي تشهد بحق على روعة الإبداع الإنساني ، و بتراثها الذي لا يزال صداه يتردد في ربوع المعمورة .

و ما يعنينا من كل ذلك الشعر الأندلسي الذي قيل عنه الكثير ، و أقيمت حوله من الدراسات الشيء اليسير ، و لئن اختلف النقاد و الدارسون في جملة من الأمور ، إلا أنهم أجمعوا على وضع قائمة لكبار الشعراء أمثال ابن زيدون و ابن خفاجة و ابن هانئ و غيرهم ، و لدى اطلاعي على جملة من كتب التاريخ الأندلسي ، إذ بشاعر و ملك يشدني إليه ، بشعره الرقيق الذي تمخض عن حياتين متناقضتين : إنه المعتمد بن عباد .

فهل نال المعتمد حقه من الدراسة على غرار باقي الشعراء حتى لا نقول كبارهم ؟

الواقع أن المعتمد لا يذكر إلا على سبيل التشفي أو الشفقة ، فالناقمون عليه يعدون عليه عثراته و زلاته من بذخ و ترف و تحالف مع العدو ، و المشفقون

عليه يسهبون في ذكر أيام الشقاء و السجن و المعاناة ، و بين هؤلاء و هؤلاء تساءلت أين شعر المعتمد من ذلك كله ، و إلى أي مدى عبر عن حياة الملك الشاعر و الأسير الحائر ؟

و محاولة مني للإجابة على هذا التساؤل اخترت هذا الموضوع الموسوم (المعتمد بن عباد شاعرا) ، مبتعدة ما أمكنني عن الأحكام المسبقة التي تسيطر عليها الأهواء و الدوافع الذاتية .

وجدت المعتمد ملكا بحق ؛ نسبا و شرفا ، شاعرية و فروسية ، وهي خصال قل أن نجدها عند أكثر الملوك ؛ و إذا بصروف الدهر تصيبه فيستحيل من الأمير إلى الأسير ومن العزيز إلى الذليل ، و من صاحب الأرض إلى الغريب المنفي .

من هنا انبنت الخطة على مدخل و أربعة فصول ، أما المدخل فكان نبذة عن حياة المعتمد و المؤثرات التي أسهمت في نبوغه الشعري ، و كان الفصل الأول في الغزل الذي شغل أكبر جزء من الديوان ، و ما لاحظناه تفرعه إلى عفيف وماجن وعادي ، أما الفصل الثاني فكان تمثيلا للانقلاب الذي عرفته حياة المعتمد من النعيم إلى الشقاء ، و الذي عبر عنه بشعر يفيض رقة و عذوبة ، و كان الفصل الثالث عبارة عن متفرقات شعرية ؛ و قد تم اختيار

هذه التسمية بناء على قلة المادة في المدح و الفخر و الاعتذار و سائر الشعر الذي نظمه أيام سعوده ، أما الفصل الأخير فكان دراسة فنية لمختلف الأغراض الشعرية ، و تلتها خاتمة هي حوصلة لما جاء في صفحات هذه المذكرة .

أما المنهج المعتمد فأحسبه تحليليا في الفصول الأربعة ، و تاريخيا في المدخل ، و حتما فهو لا يخلو من بعض الأدوات الإجرائية المساعدة .

و ليس من شك في أن لكل بحث نصيبه من المثبطات التي تعكر صفوه و توهن عزمه ، و لعل أولها تعسر الحصول على ديوان المعتمد الذي لم أجده إلا عند الأستاذ محي الدين محمد فجزاه الله عني كل خير ، ثم لاحت في الأفق عقبة أخرى هي مكتبة الكلية التي تحوي كتبا قيمة ، غير أنني عانيت معها الأمرين ، و ما تحصلت عليه من كتب- تعد على الأصابع - فبشق الأنفس .

و لكن الإرادة تذلل المصاعب جميعها ، إذ اكتمل البحث في صورته هذه التي و لا شك يلزمها الكثير لتكون أكثر نضوجا .

هذا و لا يفوتني أن أتوجه بشكري للأستاذ المشرف على هذه المذكرة الدكتور كروم بومدين ، الذي أحاطني بنصائحه و إرشاداته ، كما أمدني بعدد من

الكتب التي تعذر الحصول عليها .

ولله الشكر أولا وأخيرا .

تلمسان في 12 ذي الحجة 1427ه

الموافق ل : 2007/01/01 م

مدخـــــل

المعتمد بن عباد

حياته و ثقافته

درج الدارسون على الترجمة للمعني بالدراسة قبل الولوج في التفاصيل الأخرى، فقد أكد النقاد المحدثون أن الإلمام بالعوامل النفسية ، و ظروف البيئة التي عاش فيها الأديب هي من الأهمية بمكان ، لأن ذلك من شأنه أن يكشف عن كثير من الأمور التي تساعد الباحث أثناء دراسته .

و حيث إننا نريد إنجاز دراسة في شعر المعتمد بن عباد ، فلا بد أن نتعرض أولا إلى بعض التفاصيل الخاصة بحياته .

1- مولده و نسبه :

المعتمد بن عباد هو " محمد بن عباد بن محمد اسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو ... لخمي النسب . (1)"

و قد " ولد المعتمد على الله بمدينة باجة ، سنة إحدى و ثلاثين و أربعمائة هجرية . (2)"

و هو ينتمي إلى أسرة عربية شريفة عريقة تنتهي إلى المنذر بن ماء

1- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب : 2/ 108
2- نفسه : 119

السماء ، فقد جاء في نفح الطيب :" هذه بقية منتهاها في لخم ، و مرتماها إلى مفخرضخم ، وجدهم المنذر بن ماء السماء ، و مطلعهم في جو تلك السماء "(1)

وقد أشار المعتمد في أكثر من مناسبة إلى نسبه العريق فقال :

نَحْنُ أَبْنَاءُ بَنِي مَاءِ السَّمَاء *** نَحْوَنَا تَطْمَحُ أَلْحَاظُ الحـــدق (2)

2- بيـــــئته :

جمع آل عباد بين شرف النسب ، وسعة ذات اليد ، إذ ملكوا " ثلث كور اشبيلية ، وحين حدثت الفتنة و سقطت الدولة الأموية (استقلوا) باشبيليـــــة و حكموها "(3) ، و قد غدت على أيامهم – كما شهد بذلك المؤرخون – من أعظم المدن و أقواها في كل الميادين و على جميع الأصعدة ، قال ابن اللبانة : " إن الدولة العبادية بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد : سعة مكارم و جمع فضائل "(4) ، و من جهته يرى د/ سيد عبد العزيز سالم أ ن اشبيليـــة شهـــدت في عصر بني عباد ازدهارا لم تشهده من قبل ، لا في عصر الرومان و لا في عهد القوط "(5) .

و إلى جانب ما جمع آل عباد من شرف النسب ، و سعة الملك ، جمعـــوا

1- نفح الطيب : المقري – تح : محمد الشيخ البقاعي : 5 / 152
2- ديوان المعتمد بن عباد – تح : رضا الحبيب السويسي : 147
3- دراسات في الأدب الأندلسي : د/ محمد سعيد محمد : 346
4- نفح الطيب : 5 / 179
5- ينظر : تاريخ و حضارة الإسلام في الأندلس : 113

كذلك ضروب الأدب و الشعر ، تلك هي الأسرة الشاعرة .

3- الأسرة الشاعرة :

انشغل أغلب ملوك الطوائف في جمع الشعراء من حولهم ، و جعلهم في مقدمة بلاطهم ، و كان في طليعتهم آل عباد الذين قدموا " مثلا واضحا جدا للدور الذي يمكن أن تقوم به أسرة أرستقراطية في الحياة الأدبية ، و في هذا يقول أحمد أمين :" كان لبني عباد من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب ، و كانوا هم و بنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغة النظم و النثر (1)".

وآل عباد معرقون في الشعر ، وقد ذكر ابن رشيق في العمدة بيوتات الشعر و المعرقين فيه إذ قال : " المعرق من تكرر الأمر فيه و في أبيه و في جده فصاعدا. ، و على هذا يكون المعتمد معرقا في الشعر، فوالده المعتضد كان شاعرا ، و فيه يقول ابن بسام : " كان المعتضد ينفث بأبيات من الشعر فيما يعن له من أمر (2)(*)" ، و يقول د/ محمد سعيد : " عرف عن أبي القاسم محمد بن عباد ثم ابنه عباد الملقب بالمعتضد ، و حفيده محمد الملقب بالمعتمد أنهم شعراء

1- اشبيلية في القرن الخامس الهجري : صلاح خالص : 138
2- ظهر الإسلام : 3/ 10- 11
3- العمدة : 2 / 474
4- الذخيرة – تح : إحسان عباس : 2/ 1 : 29
*- وفيه يقول ابن عذاري : " كان أبو عمرو عباد صاحب اشبيلية من أهل الأدب البارع و الشعر الرائع – البيان المغرب : 3 / 285

فشجعوا على الحياة الأدبية "(1) فالمعتمد و عائلته الشاعرة حلقة موصولة بسلسلة الأسر الشاعرة ، منذ زهير بن أبي سلمى و آل بيته الشعراء .

4- المعتمد ملكا و فارسا :

نشأ المعتمد في بحبوحة من العيش ، فهو سليل أسرة شريفة ، وهو كذلك أمير بن أمراء ، بدأ " حياته السياسية عاملا لأبيه على ولبة ، ثم نجده محاصرا لشلب سنة 444 ه ، (إلى أن سقطت بيديه) سنة 455 ه . "(2)

ثم ها هو المعتمد بعد توليه الملك على اشبيلية يريد المزيد ، ولاحت في الأفق قرطبة ، زهراء الأندلس ، فما لبث أن اقتطفها و ضمها إلى ملكه :

خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الحَسْنَاء إذْ مَنَعَتْ ** مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بالبِيضِ وَ الأَسَل

وَ كَمْ غَدَتْ عَاطِلاً حتَّى عَرَضْتُ لَهَا ** فَأَصْبَحَت في سرَى الحُلِيّ و الكُلل (3)

هكذا شحذ الملك همة المعتمد ، ولم يصيره ذلك الشخص اللين الذي تأخذه الرياح ذات اليمين و ذات الشمال ، على اعتبار أنه عاش في ترف و بذخ كبيرين ، فعلى العكس من ذلك نجد المؤرخين يشهدون له بالشجاعة ، فهذا الفتح بن خاقان يصفه بأنه " أحد أفراد الدهر شجاعة و حزما و ضبطا للأمور . "(4)

1- دراسات في الأدب الأندلسي : 346
2- ديوان المعتمد بن عباد . 6-7
3- نفسه :105
4- تاريخ الوزراء و الكتاب و الشعراء : الفتح بن خاقان : 69

و من جهته يذهب الأستاذ نيكل إلى القول : إن المعتمد تزعم عصره بشخصيته المتسمة بالفروسية ، و يعتبر أسطع نجم في باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين (1) .

و مثلما أجمع المؤرخون على حنكة المعتمد و شجاعته ، أجمعوا كذلك على رقته و لينه بخلاف المعتضد الذي اتصف بالشدة حتى مع المقربين منه ، فشاعرنا " أول ما صنعه أنه أعاد إلى النفوس راحتها و طمأنينتها ، و جمع حوله نفوس الرعية بما أوتي من مواهب شخصية (2)" .

و إلى جانب ما تمتع به المعتمد من صفات جعلته يلقى الحظوة لدى الرعية ، كانت له ميول كثيرا ما أثارت السخط عليه وهي حب الترف و الإسراف فيه ؛ فالمعتمد كان مولعا بتشييد القصور ، و إقامة الحدائق و التفنن فيها ، ولعا شديدا، و إن لم تكن عادة المعتمد وحده بل هي عادة الملوك ، وملوك الطوائف بخاصة،إذ كانوا يتسابقون في ابتناء القصور الفخمة التي تعد " مظهرا من مظاهر الترف و الغنى و التطور الحضاري (3)" .

وقد كانت للمعتمد قصور كثيرة ، فهذا الثريا و ذاك المبارك ، و أحبها إليه الزاهي " لإطلاله على النهر ... و اشتماله بالزهر و الزيتون ، و كان له به

1- ينظر : دول الطوائف : محمد عبد الله عنان : 408
2- المعتمد بن عباد : نديم مرعشلي : 21
3- حول الأدب الأندلسي : قيصر مصطفى : 68

من طرب العيش ... ما لم يكن بحلب لبني حمدان و لا لسيف بن ذي يزن (1)"
في رأس غمدان .

هذا ، و لا يغيب عن الدارس الأندلسي يوم الطين الذي اشتهر به المعتمد مع زوجته اعتماد التي اشتهت المشي على الطين ، فأمر بالكافور و المسك و العنبر (2)
و خلطها جميعا حتى غدت كالطين ، و أي طين ؟

فكيف لا يسخط الناس على المعتمد الذي كان يسرف بهذه الطريقة ، بينما يعاني أكثرهم الفقر و الحرمان ؟

5- شاعرية المعتمد :

اجتمعت في المعتمد كل الصفات التي تجعله شاعرا من الدرجة الأولى ، فلو أراد التغني بأجداده و أسلافه ، فهو العربي عريق النسب ، ولو أراد التغني بالعز و الرفعة فهو الملك ، و لو أراد التغني بالشجاعة فهو الفارس البطل ، وبعد : فهل يكون إلا شاعرا ؟

من المعروف أن المحيط الذي يعيش فيه الشاعر ينعكس حتما على شعره الذي ينفعل تبعا " لانفعال الإنسان بالبيئة الطبيعية من حوله ، و بالبيئة الاجتماعية التي يتحرك في بوتقتها متأثرا بكل ما يطبع هذه البيئة أو تلك من

1- نفح الطيب : 5 / 195
2- ينظر المعتمد بن عباد : نديم مرعشلي : 14

سمات و مميزات"(1) ، وبالفعل أفاد المعتمد من بيئته ، فاشبيلية كانت ملتقى العلم و العلماء ، وقد عرفت تطورا في مختلف العلوم بما فيها الأدب ، و شاعرنا أخذ من ذلك كله ما استطاع إليه سبيلا ، فمما يروى أن الشاعر \ عبد الجليل بن وهبون مدح المعتمد بقصيدة ، فأجازه عليها بعطية فيها دينار مقروض ، فلما تأمل الأبيات وجد منها واحدا خرج فيه من العروض الطويل إلى العروض الكامل ، فعرف السبب (2) . و هذا إن دل على شيء فإنه يدل على سرعة بديهة المعتمد الشعرية ، وعلى درايته الواسعة بعلم العروض .

ومن جهة أخرى ، لم يكن المعتمد " بالمتكسب المتهافت على المال يجمعه عن طريق المدح ، و لا هو بالمتخذ الشعر حرفة و صناعة ، ولكنه يستعمله أداة للتعبير عن مشاعره ، و عما توقده في صدره حوادث الدهر من عواطف واختلاجات (3)" .

و على خطى المعتضد سار المعتمد يجمع الشعراء و يستوزرهم ، والأدباء وينادمهم فقد " كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلانا العالم عند فلان الملك ، و فلانا الشاعر مختص بفلان الملك (4)" .

1- الشعر و البيئة في الأندلس : ميشال عاصي : 08
2- ينظر : أخبار و تراجم أندلسية : إحسان عباس : 19
3- تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري : 838
4- تاريخ آداب العرب : مصطفى الرافعي : 3 / 280

إلا أن المعتمد بزهم جميعا ، يقول الفتح بن خاقان : " ما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع في بابه من أعيان الأدب ، و كان فصيحا شاعرا و كاتبا مترسلا ، بديع التوقيع له ديوان شعر * (1)" .

عموما ، فإن حياة المعتمد – المتقلبة – التي عاشها نجدها ممثلة في شعره أحسن مما تطلعنا عليه كتب التاريخ ، فحياة الملك و الترف قادته للنظم في أغراض الفخر و الغزل و الوصف ، أما أيام الشقاء و الأسر فأملت عليه شعرا حزينا مؤثرا ، و في هذا يقول أحمد أمين : " فإذا رأيت غزلا هادئا و حبا صادقا فذلك في الفترة الأولى ... و إذا رأيت في شعره فخرا و شمما مملوءا حماسة ... فذلك في الفترة الثانية ، وإذا رأيت بكاء على الماضي و مقارنة بين ماض زاهر و حاضر بائس فاعلم أن هذا ظل للفترة الثالثة ** (2) .

1- تاريخ الوزراء و الكتاب و الشعراء : 69

*- جمع بلاط المعتمد عديد الشعراء أمثال : ابن زيدون و ابن حمديس و ابن عبد الصمد و ابن اللبانة و ابن عمار ... – ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه : مصطفى الشكعة : 533

2- ظهر الإسلام : 3 / 177- 179

** - الفترة الأولى و الثانية : فترة الشباب و الملك ، و الفترة الثالثة : فترة الأسر .

6- الزلاقة نصر و انكسار :

أشاد المؤرخون بوقعة الزلاقة التي دحر فيها المسلمون الاسبان (*) ، و ردوهم على أعقابهم خائبين (**) ، و كان طرفا القتال جيش العدو بقيادة ألفونش ، و جيش المسلمين بقيادة المعتمد بن عباد و حليفه القائد المرابطي يوسف بن تاشفين .

و الواقع أن هذا التحالف الذي وقف في وجه حرب الاسترداد ، لم يكن بالأمر المستساغ لدى أكثر الأندلسيين فهذا الرشيد بن المعتمد يعارض أباه خوفا من طمع ابن تاشفين في الأندلس ، فكان رده الشهير : والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر (1) .

و سرعان ما حدثت الجفوة بين الحليفين ، و صدقت الأيام كلام الرشيد ، فضاع الملك و تبدد الشمل ، و استحال الحكم العبادي إلى أثر بعد عين (2) .

الواقع أن الزلاقة التي تعتبر " من المعارك الفاصلة في التاريخ على غرار اليرموك و القادسية (3)" ، كانت القطرة التي أفاضت الكأس ، فالظروف التي أمست عليها دول الطوائف- بما فيها اشبيلية – كلها تؤذن بالنهاية " فالدولة إذا طرقها الهرم بالترف و لم تعد قادرة على الاعتماد على أبنائها يحمونها ... لا يجد

---

*- و تسمى أيضا : يوم العروبة

**- يرد في مراجع أخرى : ألفونس

1- تاريخ الفكر الأندلسي : أنجاليث بالانثيا - تر : حسين مؤنس : 100

2- ينظر المغرب في تاريخ الأندلس و المغرب : عبادة كحيلة : 246

3- الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود : عصام محمد شبارو : 243

صاحبها أمامه ... غير الفراغ الذي أحدثه ... باستسلامه لسيل الترف المدمر ، هنا يتمزق شمله ، و يلقي بنفسه بين أحضان الأجانب ." (1)

كانت تلك نهاية دول الطوائف ، و نهاية الدرة فيها : اشبيلية ، بيد أن المعتمد كان أسوء الملوك حظا ، وكانت نهايته في أغمات أكثر قسوة و ألما حتى لقد عاد من كان يمدحه راثيا له ناعيا ، و من كان يرجوه منتجعا عليه باكيا ." (2)

و قد عبر عن المأساة شعراء كثر ، فهذا ابن اللبانة ينعي ملك العباديين فيقول :

تَبكي السَّمَاءُ بِمزن رَائِح غَادِي ** على البَهَالِيلِ مِن أبْنَاء عَبـّاد

على الجِبَالِ الَّتي هُدَّت قَوَاعِدها ** و كَانَت الأرْضُ مِنْهُم ذاتَ أوْتَاد (3)

و بالنبرة الحزينة نفسها عبر ابن حمديس عن الفاجعة فقال :

أباد حَيَاتي المَوْت إنْ كُنْت سَالِيًا ** وأنْتَ مُقيمٌ في قُيُودِكَ غَالِيا

وإنْ لَمْ أُبَارِ المُــزنَ بأدْمُع ** عَلَيك فَلاَ سقِيت الغَـوَادِيَا (4)

وبعد،فتلك بعض معالم شخصية المعتمد بن عباد ، و لكن ماذا عن شعره ؟ و ما طبيعة العلاقة بين شعره و حياته و شخصيته ، انفعالا و تفاعلا ؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في هذا البحث ...

1- الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون : عبد الله شريط :358

2- خريدة العصر و جريدة القصر : العماد الأصفهاني – قسم شعراء المغرب و الأندلس :25

3- شعر ابن اللبانة – تح : د / محمد مجيد السعيد : 39

4- ديوان ابن حمديس – تح : إحسان عباس : 530

الفصل الأول

غزليات المعتمد

لعل أكثر الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء على مر الزمن هي الغزل ، وقد عرفه ابن منظور بأنه " اللهو مع النساء.. و مغازلتهن و محادثتهن و مراودتهن .. وفي المثل : أغزل من امرىء القيس ."(1)

و من هذا المفهوم اتجه الغزل ليعبر عن العواطف التي تجيش في نفس الشاعر ، مصورا ما يكابده من آلام و أشواق فهو" يتصل بالمرأة و هي كانت ولا تزال ملجأ الرجل و ملاذه إذا أجدبت نفسه بالحوادث الآزمة و الكوارث العاصفة ."(2)

و قد عرف الغزل تطورا عبر العصور المختلفة ، فنجده في العصر الجاهلي يتصدر القصائد و يتخللها أحيانا ، ثم نجده فيما بعد قصائد مستقلة يتفاوت فيها الشعراء جودة و كثرة .

و قد عرف الغزل بنوعيه الماجن و العفيف ، إقبالا من الشعراء منذ القديم ، فقد أجمع المؤرخون على أن أول من وقف و استوقف و بكى و استبكى ؛ الشاعر الجاهلي امرؤ القيس في مطلع معلقته الشهيرة التي كان الباعث على نظمها " وصف واقعة جرت له مع ابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل ." (3)

1- لسان العرب : ابن منظور – مادة (غزل) : 492
2- الغزل في تاريخ الأدب العربي : أحمد الشايب : 17
3- شرح المعلقات السبع : الزوزني : 09

و الواقع أن القصيدة ليست كلها غزلا خالصا ، و إنما تتخللها أغراض شتى هي طبيعة النظم الجاهلي .

هذا ، و قد ذهب أغلب النقاد إلى تغييب الغزل الصادق الحار في الجاهلية مستدلين في ذلك بالشواهد الغزلية لامرىء القيس و عمرو بن كلثوم و غيرهما ، إذ ركزت على الوصف الحسي الجاف و لم تتجاوزه إلى وصف ما يكابده الشاعر من ألم و شغف .(1)

و لا يعني هذا القول خلو الأدب الجاهلي خلوا تاما من الغزل الصادق المؤثر ، و كيف ندعي هذا و عنترة فيه ينفث أبياتا تصدع الحجر رقة و عذوبة ؟

و نجد الغزل في صدر الإسلام يرتبط بالقيم و المبادئ الخلقية الجديدة فما كان في حدود ذلك فهو مقبول ، و ما تعداه كان مردودا ، فالإسلام لم يقمع المشاعر الإنسانية و لم يحاربها كما ادعى بعض المغرضين ، ولا " أغفل الجانب العاطفي في الإنسان ، وما تحدثه تلك العاطفة من تجاذب فطري ... من مشاعر و خواطر و أفكار و سلوك ، و إنما قولبها في قالب العفة و الطهارة التي تتفق مع الفطرة الإنسانية ، و لا دليل أقطع من قصيدة البردة التي أنشدها كعب بن زهير على مسامع الرسول(عليه الصلاة و السلام)(2)"

1- ينظر الغزل في تاريخ الأدب العربي : 29- 30

2- الأدب الإسلامي = ماهيته و مجالاته : العرابي لخضر : 191

مستهلا إياها بمقطع غزلي خالص قال فيه :

(1)
بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ *** مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُـــولُ

و على هذا النهج سار الشعراء العذريون من أمثال جميل بن معمر و قيس ابن الملوح ينفثون أبياتا شجية تأنس لها النفوس ، فكانوا بحق مثالا " للنفوس المحبة التي تذرعت بالإيمان و احتمت بالعفة "(2).

بيد أننا نجد شعراء أبوا إلا أن يخرجوا عن الفطرة السليمة ، و يطلـقوا العنان لأشعارهم متجاوزين كل الحدود ، كان على رأس هؤلاء عمر بن أبي ربيعة (*) الذي أسس المدرسة العمرية ، و أبو نواس الذي أفرط في تصـوير مجالس اللهو ، و جاهر بالتغزل بالغلمان كقوله :

(3)
وَ عَاذِلَةٍ تَلُومُ على اصْطِفَائِـي *** غُلَامًا وَاضِحًا مِثْلَ المَهَـــاةِ

كان لابد من الإشارة إلى الغزل في عصوره الأولى لأن الغزل الأندلسـي ما هو إلا امتداد للغزل المشرقي بأشكاله و اتجاهاته ، إلا أنه عرف نيوعـا و انتشارا منقطع النظير ، بل يمكننا القول إنه وجد بيئته المثاليـة لما عرفتـه

1- ديوان كعب بن زهير : 84
2- تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام : شكري فيصل : 276
*- الغزل العمري : تعبير عن طبقة متحررة تضع شهواتها و ملذاتها فوق كل شيء – م ن : 281
3- أبو نواس بين العبث و الاغتراب و التمرد : أحلام الزعيم : 186

الأندلس من مجالس اللهو و الأنـــس و تحـرر المـرأة .

فقد ظـل الشـعـراء " يتـغنون بمباهج الـحـب المـوصول ، ويصفـون تباريح الهوى الخائب ، و يصـورون بألطف الألـوان سـعادة لقـاء حنون ، و يبكون في عاطفة مشبوبة آلام الفراق . (1)"

ومن هؤلاء الشـعـراء ابن زيدون الذي قدم " لديوان الشعر العربي تجربـة حب لا نقول فريـدة في نوعـها ؛ بل يحق لنا أن ننعتها بالتميز لكونـها وصمت بنبرتي الاختـــلاس و الاحتراس . (*) (2)"

ومنهم أيضا ابن خفاجة الذي تحدى العواذل بهذا البيت : (3)

صَمَمْتُ سَمْعًا فَمَا أَصْغِي إلى العَذَل **وَ هِمْتُ قَلْباً فَمَاأَصْحُو عَنَ الغَزَل

(**)

و تجدر الإشارة إلى أن الغزل الأندلسي على الرغم من تطوره شكـــلا و مـضمونا ، و على الرغـم من كـون الشعراء أفردوا له قصائد مسـتقـلة

1- الشعر العربي في اسبانيا و صقلية : الطاهر أحمد مكي : 1 / 84

*- يكثر الشاعر من ذكر كلمة الاختلاس من ذلك قوله :

ولما أجلتك لي اختلاســا *** أكف الدهر للحين المتـــــــــاح

و قوله :

واغتنم صفو الليالـــــي *** إنما العيش اختـــــــــــلاس

2- أندلسيات غرناطة و الشعر : عبد الله حمادي : 52

3- ديوان ابن خفاجة : 141

**- لم يقصر شعراء الأندلس شعرهم على الغزل كما فعل ابن أبي ربيعة و مـجنون ليـلى – ينظر : تاريخ الأدب العربي – الأدب في المغرب والأندلس : عمر الفروخ : 1/ 403

إلا أننا نجد بعضهم استمر في جعله فاتحة للقصائد على عادة الجاهليين (1)
وممن كان يفعل ذلك ابن زيدون و ابن دراج القسطلي .

ولا ننهي الحديث ها هنا دون الإشارة إلى المدرسة التي أسسها ابن حزم الأندلسي في الحب و الغزل ، تلك التي كان لها كبير أثر في الأندلس و أوربا (*)
فيما بعد ، ومن عيون شعره قوله :

وَبِتْتُ بأنّ القلبَ شُقّ بمُدْيَةٍ ** وأدْخِلتِ فِيه ثُمّ أطبق على صَدْري

تَعِيشِينَ فِيه مَا حَييتُ فإنْ أمُتْ ** سَكَنْتِ شِغافَ القلبِ في ظُلم القبْر(2)

<u>الغزل عند المعتمد بن عباد :</u>

شغل الغزل عند المعتمد الحيز الأكبر من الديوان بأكثر من خمسين قطعة ولعل لهذا الزخم الشعري الهائل – بالنظر إلى باقي الأغراض – أسبابا مردها إلى حياة الترف التي كان يعيشها ، فضلا على تميزه برقة النفس و الشعور .

" والحق أن المعتمد وفق أيام مجده و سعوده إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره في أبواب الغزل ووصف مجالس السرور ... إلى آفاق

1- ينظر قصيدة المديح في الأندلس : أشرف محمد نجا : 122- 123
*- كان شعر ابن حزم واقعيا واضحا يصف أحوال النفس على فطرتها دون المغالاة في البكاء على الأطلال ، و رجاء الوصال .
2- طوق الحمامة : ابن حزم الأندلسي – تح : صلاح الدين القاسمي : 139

استدرت إعجاب البدو أنفسهم" (1).

والغزل عند المعتمد يتجه اتجاهات ثلاثة : عذريا و ماجنا و عاديا (*).

1- الغزل العذري :

درج الشعراء العذريون على شكوى الفراق و البعد و الجفاء ، و الحنين إلى أيام السعادة و الصفاء ، و المعتمد في هذا لم يخرج عن المألوف ، فهو كمن سبقه بمئات السنين يشكو القسوة و يطلب الرحمة :

لَكِ اللهُ كَمْ أوْدَعْتِ قَلْبي مِنْ أسَى

وَ كَمْ لكِ ما بَيْن الجَوَانِح مِنْ كَلْـــم

لِحَاظُكِ طولَ الدَّهْر حَرْبٌ لِمُهْجَتِي

ألاَ رَحْمَةً تُثْنِيكِ يَوْمًا إلى سِلمـــي (2).

ويطلب في موضع آخر الرحمة و العطف في حوار مع المحبوبة فيقول :

قُلتُ : فَقَدْ أيْأَسْتَنِي *** مِنَ الحَيَاة ... قَالَ : قَـــدْ

قُلتُ : مَتَى تَرْحَمُنِي ؟ *** قَالَ : وَلا طُولَ الأبَـــدْ(3)

1- المعتمد بن عباد : عبد الوهاب عزام : 17

*- الغزل العادي : هو الغزل الذي يصف فيه الشاعر المرأة دون مغالاة و لا إسراف ، فلا هو بالعذري و لا هو بالماجن ، إنما يغلب عليه التصنع.

2- ديوان المعتمد بن عباد : تح : رضا الحبيب السويسي : 19

3- نفسه : 20

و يشكو المعتمد كغيره من العشاق آلام الفراق و الهجر ، و العذاب الذي يعانيه جراء ذلك :

أسَرَ الهَوَى نَفْسِي فَعَذَّبَها ** يَوْم الوَدَاع فَلَمْ أُطِقْ مَنْعـا

فَأذَابَ حَرّ صَبَابَتِي كَبِدِي ** وَ أسَالَها في جُنَّتِي دَمْعـا(1)

و يقول أيضا في وصف لحظة الوداع :

وَلَمّا التَقَيْنَا لِلْوَدَاع غَدَيَّة ** وَ قد خَفَقَتْ في سَاحَاتِ القَصْر رَايَات

وَ قَرَّبَت الجُرْدُ العِتَاقُ وَ صَفَّقَتْ ** طُبُولٌ وَ لاَحَتْ لِلْفِرَاق عَلاَمَـات

بَكَيْنَا دَمًا حَتَّى كَأنّ عُيُونَنا ** لِجَرْي الدُّمُوعِ الحُمْرِ مِنْها جِرَاحَات (2)

ما أجمل وصف لحظات الوداع هذه التي صورها المعتمد من كل الجوانب : لحظة الوداع ، الأجواء المحيطة ، و الشعور النفسي كل ذلك في أبيات تتناغم فيها الكلمات في أصدق اللحظات و أصعبها ..

ثم يصف في موضع آخر كيف رحل صبره عنه برحيل أحبته ، رافضا الرجوع حتى يرجعوا :

(3)

رَحَلَ اصْطِبَاري إذْ رَحَلْتُم قَائِلا ** أوْبُ الأحِبَّة بَيْنَنا المِيعَـاد

1- ديوان المعتمد بن عباد : 43

2- نفسه : 44-45

3- نفسه :45

نظم المعتمد الأبيات السابقة شاكيا بعد الأحبة ، غير أننا نجده في هذه المرة هو الذي ابتعد ، و سواء أكان هو المودِّع أم المودَّع ، فالأمر سيان حين يتعلق بالحنين و الشوق إلى الأحبة ، يقول مخاطبا اعتمادًا زوجته :

فما حَلَّ خِلٌّ مِنْ فُؤَادِ خَلِيلِه ** مَحَلَّ اعْتِمَاد مِن فُؤَادِ مُحَمَّـــد

(1)

وَلَكِنَّها الأَقْدَارُ تُرْدِي بِلا ظُبَى ** وَ تُصْمِي بِلا قَتْلٍ وَ تَرْمِي بِلا يَد

و تتكرر صورة الشاعر المحب الذي جعل علته و سقمه نتيجة حتمية لبعد الحبيب و فراقه :

(2)

وَاللهِ ما سُقْمِي إلاَّ هَوى*** كُلُّ هَوَى في جَنْبِه يَصْغُر

و يقول في موضع مشابه :

(3)

. لقَلْبي لِبُعْدِك عَنِّي عَلِيل ** فَشَوْقِي صَحِيحٌ وَ جِسْمِي عَلِيل

و المعتمد عاشق يستلذ عذابه ، بل يتمنى دوام العلة إذا كان في ذلك سبيل لقرب الأحبة :

(4)

إذا عِلَّة كَانَتْ لِقُرْبِك عِلَّة ** تَمَنَّيْتُ أَنْ تَبْقَى بِجِسْمِي وَ أَنْ تَقْوى

فَيَا عِلَّتِي دُومِي فَأَنْتِ حَبِيبَةٌ ** وَ يَا رَبِّ سَمْعًا مِن نِدَائِي وَ الشَّكْوَى

1- الديوان : 51
2- م ن : 37
3- م ن: 56
4- م ن : 57

و مع كل هذا العذاب يظل المعتمد ذلك العاشق المخلص الوفي ، الذي لا يغيره شيء:

وَوُدّي عَلى حَسَبِ مَا تَعْلَمِينَ * تَزُولُ الجِبَالُ و ما إنْ يَزُول**

فَلا تَسْتَحِيلِي لِبُعْدِ النّيَـارِ * فَإنّي مَعَ البُعْدِ لا أَسْتَحِيل(1)**

إلى هنا نجد المعتمد أشبه ما يكون بعنترة الجاهلي ، أو جميلاً الأموي ، شغلهما الشاغل طلب الوصال و الرضا به ، ولسان حالهما البكاء و التوجع و الألم .

2- الغزل الماجن :

خاض المعتمد الغزل المادي بكل صوره حتى التي تخالف العرف ، و هذا راجع لحياة الترف التي كان يعيشها في أيام شبابه و ملكه إذ " ... كان يكثر من مجالس الشراب و الطرب ... و كان يميل إلى الاستكثار من الجواري و المغنيات (2)" .

و من جملة هذه الأشعار تلك التي نظمها في شلب موطن الشباب و اللهو قبل أن يتولى زمام الملك ، أو التي قالها و هو يحن إليها بعد طول زمن :

مَنَازِلُ آسَادٍ وَ بِيضُ نَوَاعِـمٍ * فَنَاهِيكَ مِن غِيلٍ وَ نَاهِيكَ مِن خِدْر**

1- الديوان : 56

2- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس : سيد عبد العزيز سالم : 103

و كَم ليلَة قد بتّ أنعَمُ جنْحَها *** بمُخضَّبَة الأرْدَافِ مُجْنَبَة الخَصْر

وَ بَاتَتْ تَسْقِيني المُدَام بِلحْظِها *** فمِن كَأسِهَا حِينًا وَ حِينًا مِنَ الثَّغْر(1)

(*)

و قد لا يشبع الواقع حاجات الشاعر فلا يجد غير الحلم ملاذا له :

إنّي رَأيْتُك في المَنَام ضَجِيعَتِي *** وَ كَأنّ سَاعِدَكِ الوَثِير وسَادي

وَ كَأنّمَا عَانَقْتِنِي وَ شَكَوْتِ ما *** أشْكُوهُ مِنْ وَجْدِي وَ طُول سُهَادِي(2)

و المعتمد حين اختار هذا الاتجاه المادي ، حتما لن يتوانى عن النظم فيما

(**) (***)

هو أبعد من ذلك و هو التغزل بالغلمان على عادة أهل عصره و خلانه

ومن ذلك قوله في مملوك كان يتصرف بين يديه :

سُمِّيتَ سَيْفًا وَفِي عَيْنَيْكَ سَيْفَان *** هَذَا لِقَتْلِي مَسْلُول وَ هَذَان

لَمَا كَفَتْكَ قَتْلَةً بالسَّيْفِ وَاحِدَةً *** حَتَّى أتِيحَ مِن الأجْفَانِ ثِنْتَان

1- الديوان : 47 / 48

*- يكون الحلم عند الشاعر المحب هروبا من الواقع و أحيانا انعكاسا له كما في قول ابن حزم : رأيتك في نومي كأنك راحل

وقمنا إلى التوديع و الدمع هامل

- طوق الحمامة : 190 -

2- ديوان المعتمد : 50

**- شاع التغزل بالغلمان بين شعراء الأندلس إلا أنهم لم يسرفوا فيه و لم يفحشوا — ينظر : الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 173

***- ممن صاحب المعتمد ردحا من الزمن ابن عمار و مما قاله في التغزل بالغلمان :

و أحور من ظباء الروم عاط ** سالفتيه من دمعي فريد

- الذخيرة : 1/2 : 388 -

(1)

يا سَيْفُ أمْسِكْ بمَعْرُوفٍ أسِيرَ هَوَى * لا يَبْتَغِي مِنْكَ تَسْرِيحًا بإحْسَانِ**

و يتغزل – في موضع آخر – بغلام له و بجماله الذي يخطف الأبصار حتى و إن كان مقنعا :

إذَا مَا اقْتَحَمْتَ الوَغَى دَارِعًا * وَ قَنَّعْتَ وَجْهَكَ بالمِغْفَرِ**

حَسِبْنَا مُحَيَّاكَ شَمْسَ الضُّحَى * عَلَيْهَا سَحَابٌ مِنَ العَنْبَرِ(2)**

هكذا سار المعتمد على خطى المتغزلين بالغلمان ، إلا أنه لم يسرف إسراف أبي نواس و غيره من الشعراء الذين يطلقون العنان لأشعارهم متجاوزين كل الحدود ، إنما فعل ذلك لأنها عادة الشعراء الميسورين و الملوك المترفين .

3- الغزل العادي :

اتجه المعتمد اتجاها وسطا بين الغزل العفيف و الغزل الماجن ، هو الغزل الذي يعنى بوصف المرأة دون مغالاة و لا إسراف ، و المتتبع لهذا النوع من الغزل عند المعتمد ، يجده يسقط على المرأة أوصافا يستقيها من الطبيعة حينا ، ومن محيطه حينا آخر ، وقد يجنح إلى خياله ليرسم المرأة المثال .

1- الديوان : 59

2- م ن : 61

أ- المرأة و الطبيعة :

سار المعتمد على خطا سابقيه و معاصريه ، فأخذ من الطبيعة أجمل ما فيها و أسبغه على محبوبته ، و ربط المرأة بالطبيعة نزعة درج عليها الشعراء من قبله ، و في عصره إذ " قرنوا بين جمالها و جمال الطبيعة ، فشبهوا جبينها بالشمس ، ووجهها بالنجم و القمر ... و خدها بالورد .. " (1)

و من أجل هذه الصلة تساءل إيليا حاوي قائلا : لا ندرك إذا كان يحب الطبيعة عبر المرأة أم المرأة عبر الطبيعة ؟ (2)

انظر إلى المعتمد و هو يشبه محبوبته بالكوكب و القمر :

(3)

يا صَفْوَتِي مِن البَشَر *** يا كَوْكَبًا بَلْ يا قَمَر

فالشاعر اصطفى محبوبته من البشر ليجعلها كوكبا في الرفعة ، و لكنه استدرك الأمر فرأى أن يجعلها قمرا ليكسبها صفة الضياء .

و نجده في موضع آخر يشبه محبوبته بالهلال، و لهذا الأخير أيضا مسحة من الجمال لا تقل عن البدر في ليلة اكتماله :

(4)

يا هِلَالاً إذَا بَدَا لِي تَجَلَّت *** عن فُؤَادِي دَجْنَة الكُرُبَات

1- قصيدة المديح في الأندلس : 124

2- ينظر : تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية و الإسلام : أحمد فلاق عروات : 45

3- ديوان المعتمد : 20

4- م ن : 21

ونجده في موضع ثالث يختار النجم الذي طالما تغنى به الشعراء ؛ إنه الشمس ،

فمحبوبه ليس إلا الشمس سناء و ضياء و رفعة ، و قلبه أحد أبراجها :

(1)

يا أَيَّتُهَا الشَّمْسُ الَّتِي * قَلْبِي لَهَا أَحَدُ البُرُوجِ**

وإذا كان الوجه- عادة- يشبه بالشمس و القمر و النجوم ، فإن القد و القوام

يشبهان بالغصن :

(2)

يا غُصْنًا إِذَا مَشَى * يا رَشَأً إِذَا نَظَرْ**

و يقول في موضع آخر :

(3)

نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنَعَّمٍ ** نَضِيرٍ كَمَا انْشَقَّ الكَمَامُ عَنِ الزَّهْرِ

و المعتمد لا يكاد يخرج عن دائرة القدماء ، فهو يشبه المرأة بالغزال كما

(*)

فعل قبله امرؤ القيس و عنترة و غيرهما .

يقول المعتمد :

(4)

يا غَزَالا صَادَ مِنِّي * بالطُّلَى لَيْثَ الهِيَاجِ**

1- الديوان : 24

2- م ن : 20

3- م ن : 21

*- يقول امرؤ القيس : و جيد كجيد الرئم ليس بفاحش

إذا هي نصته و لا بمعطل

- شرح المعلقات السبع : 28 -

ويقول عنترة : وكأنما التفتت بجيد جداية ** رشإ من الغزلان حر أرثم

- م ن : 176

4- ديوان المعتمد : 21

و يقول أيضا :

(1)

وَ غَزَالا لمُقلَتَيْه بقَلْبي * فَتَكَاتٌ كَأَنَّها فَتَكَاتِي**

ومما يلاحظ أن المعنى في البيتين واحد و هو إظهار مدى تأثير هذا المحبوب في المعتمد ، مع فارق بسيط هو أن الشاعر جعل في البيت الأول المرأة غزالا ، أما في البيت الثاني فأخذ منه صفة واحدة هي سعة العينين .

و إذا كان الشعراء عادة يتغنون بالظبي و الغزال في رشاقة القوام و جمال العيون ، فإننا نجد المعتمد أبى إلا أن يجمع كل ذلك في بيت واحد ويثلثها بذكر الغصن : **هي الظَبْيُ جِيدًا وَ الغَزَالَةُ مُقْلَةً**
وَ رَوْضُ الرُبى فَوْحًا و غُصْنُ النَّقا قَدًّا(2)

ب- الغزل و الحماسة:

إن المتتبع لأشعار المعتمد في الغزل يقف على توظيفه لألفاظ و معان تدل على القوة في موضع هو أحوج فيه إلى التعابير اللينة الرقيقة ، فالمعتمد لم ينس الشجاعة و الفروسية حتى و هو ينظم في أرق الأغراض الشعرية ،

(*)

وكثر هم الذين فعلوا ذلك منذ القديم ، و في الأندلس نلقى ابن هانئ قد شاع

1- الديوان : 21

2- م ن : 50

*- لعل أكثر الشعراء الذين زاوجوا بين الغزل و معاني القوة و السابقين إلى ذلك : عنترة الجاهلي و المتنبي ، و مما قال عنترة :

أيا عبل مني بطيف الخيال ** على المستهام و طيب الرقاد
و حقك لا زال ظهر الجواد ** مقيلي و سيفي و درعي وسادي- الديوان:119

عنده هذا النوع من الغزل ، من ذلك قوله :

فَتَكَاتُ طَرْفِكَ أمْ سُيُوفُ أبيكِ ** وَ كُؤُوسُ خَمْرٍ أمْ مَرَاشِفُ فِيكِ (1)

و من قول المعتمد في هذا الشأن :

لحَاظُكَ طُولَ الدَّهْرِ حَرْبٌ لِمُهْجَتِي ** ألا رَحْمَةٌ تُثْنِيكَ يَوْمًا إلى سِلْمِي(2)

و قوله أيضا :

إذا مَا اقْتَحَمْتَ الوَغَى دَارِعًا ** وَ قَنَّعْتَ وَجْهَكَ بالمِغْفَرِ

حَسِبْنَا مُحَيَّاكَ شَمْسَ الضُّحَى ** عَلَيْهَا سَحَابٌ مِنَ العَنْبَرِ(3)

و إذا كان المعتمد ذكر الحرب تصريحا في البيتين السابقين فإنه اختار هذه المرة ذكر أدواتها :

(4)
. وَ أغَنَّ يَلْعَبُ بالهُمُومِ كَمَا غَدَتْ ** أرْمَاحُ قَوْمِي بالعِدَاةِ لَوَاعِبَا

و يذكر في موضع آخر أثر الغانيات فيه ، فيشبه ذلك بوقع الصفائح البيض :

(5)
وبِيضٌ و سُمْرٌ فَاعِلاتٌ بِمُهْجَتِي ** فِعَالَ الصَّفَائِحِ البِيضِ وَ الأسَلِ السُّمْرِ

1- ديوان ابن هانئ : 252
2- ديوان المعتمد : 19
3- م ن : 61
4- م ن : 25
5- م ن : 48

و يذكر المهند تارة فيقول :

حَلَفْتُ به لَوْ تَعَرَّضَ دُونَـــهُ ** كُمَاةُ الأعَادِي في النَّسِيجِ المُسَــرَّد

لَجَرَّدْتُ للضَّرْبِ المُهَنَّدَ فانْقَضَى ** مُرَادِي، وَ عَزْمًا مِثْلَ حَدِّ المُهَنَّد (1)

و تارة أخرى يذكر السيف فيقول :

أمَا كَفَتْ قَتْلَةٌ بالسَّيْفِ وَاحِدَةٌ ** حَتَّى أتِيحَ مِنَ الأجْفَانِ ثِنْتَان (2)

و يقول في موضع مشابه :

كَمْ بِتُّ مِنْكُم بَيْنَ غُصْنَيْ بَانَةٍ ** كَالسَّيْفِ تَضْغَطُ مَتْنَهُ الأغْمَاد (3)

و يخاطب محبوبته بنبرة تنبئ عن شدته و بأسه فيقول :

يا ظَبْيَةً سَلَبَتْ فُؤَادَ مُحَمَّد ** أوَ لَمْ يُرَوِّعْكِ الهِزَبْرُ البَاسِلُ؟(4)

ج- المعتمد و الزمن :

كثيرا ما ذكر المعتمد ساعات الزمن و لياليه في خضم حديثه الشجـي ، ولعل ذلك مرده إلى نفسه الرقيقة التي ظلت في صراع مع الزمن الذي شـــح باللحظات السعيدة ،على حين أكرمه كل الكرم بلحظات الحزن و الشقـــاء ،

1- الديوان : 51
2- م ن : 59
3- م ن : 45
4 – م ن : 38

و يذهب إلى أبعد من هذا حين يرى أن هناك مؤامرة ضده يحوكها المحبوب والزمن ، فهو لذلك ليس راضيا و لكن شاكيا معاتبا :

(1)

لسْتُ أرْضَى عَنْ زَمَانِي أوْ أرَى ** مِنْكَ حُسْنًا لا أرَاهُ مِنْ أحَد

و الزمن يكون عنده أحيانا رديفا للبعد و الشقاء :

قُلتُ : مَتَى تَرْحَمُنِي ؟ * قَالَ : وَ لا طُولَ الأبَدْ**

قُلتُ : فَقَدْ أيْأسْتَنِي * مِنَ الحَيَاةِ ... قَالَ قَدْ(2)**

أما ثنائية الليل و النهار ، فلا تكاد تختلف عند المعتمد عن سابقيه ، فالليل رمز البعد و الألم و الهجر ، و أما الصباح فرمز الفرج و اللقاء :

(3)

الصُّبْحُ قَدْ مَزَّقَ ثَوْبَ الدُّجَى * فَمَزِّقَ الهَمَّ بِكَفَّيْ مَهَا**

فمثلما يهدد الصباح ظلمات الليل الحالكة ، بل و يمزقها ، كذلك يفعل هذا المحبوب إذ يقضي على الهم الذي يعانيه الشاعر بكفيه .

كما يجعل الليل في موضع آخر رديف الهجر، فيقول :

(4)

فَكَأنَّمَا زَمَنُ النَّهَاجُرِ بَيْنَنَا * لَيْلٌ و سَاعَاتُ الوصَالِ بُدُور**

1- الديوان : 30
2- م ن : 20
3- م ن : 22
4- م ن : 53

بيد أن المعتمد، و في لحظات معينة، تتغير عنده دلالات الليل و النهار ، فبعد أن كانا رمزين للبعد و اللقاء ، أصبحا رمزين للجمال في المحبوب :

(1)

تَمَّ لهُ الحُسْنُ بالعِذار * وَ اقْتَرنَ اللَّيْلُ بالنَّهَار**

د- المعتمد و الأعداد :

ليس ذكر الأعداد جديدا في الغزل أو غيره ، و لكن الشعراء يتفاوتون في ذلك فمنهم من يكتفي بذكر الجمع أو المفرد دونما ذكر للأعداد ، و منهم من يذكرها تصريحا، غير أننا ألفينا المعتمد يركز على عدد معين دون سواه هو العدد ثلاثة (3) :

داوى ثلاثتهُ بلطفِ ثلاثة فثنى بذاكَ رَقِيبَهُ لمْ يَشْعُر**

أسْرَارَهُ بتَسَتُّر وَ أوَارَهُ * بتَصَبُّر و خَبَالهُ بتَوَقُّـــر(2)**

و يقول أيضا :

ثلاثة مَنَعَتْهَا عَنْ زيَارَتِنَا * خَوْفُ الرَّقِيبِ و خَوْفُ الحَاسِدِ الحَنِـــق**

ضَوْء الجَبين و وَسْوَاس الحُلِيّ و مَا * تَحْوِي مَعَاطِفُهَا مِن عَنْبَرعَبِق(3)**

و يقول أيضا :

1- الديوان : 62
2- م ن : 42
3- م ن : 43

(1)

و كُنّا نُرَجّي الأوْبَ بَعْدَ ثلاثةٍ * فكَيْفَ و قدْ طالتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ**

فهل تركيز المعتمد على العدد ثلاثة راجع إلى كونه الملك العبادي الثالث أم لأسباب أخرى ؟

ه- المعتمد و الخمر :

لا يخفى على المتتبع لغزليات المعتمد إشاراته المتكررة للخمر لا لوصفها ، و لكن لأمر ما جعله يربطها بالمحبوب تارة على سبيل المجاز و تارة على سبيل الحقيقة ، و لعل السبب راجع إلى تلك النشوة التي يشترك في الإحساس بها المتغزل و شارب الخمر، و منها قوله :

(2)

أنا في عَذابٍ مِن فِرَاقِكِ * سَكْرَانٌ مِن خَمْرِ اشْتِيَاقِكِ**

ثم هو يربط ربطا عجيبا بين عيني المحبوبة و سكرة الخمر :

(3)

مُحَيِّرَةُ العَيْنَيْنِ في غَيْرِ سَكْرَةٍ * مَتَى شَرِبَتْ ألحَاظُ عَيْنَيْكِ اسْقُطَا**

أما في المواضع الأخرى فنجد المعتمد يذكر الخمر على سبيل الحقيقة :

(4)

خُذْ باسْمِهَا مِنْ رِيقِهَا قَهْوَةً * في لَوْنِ خَدَّيْهَا تُجَلِّي الأسَى**

1- الديوان : 45
2- م ن : 56
3- م ن : 58
4- م ن : 22

و قوله :

(1)

ريعَتْ مِنَ البَرْق و في كَفّهَا * بَرْقٌ مِنَ القَهْوَةِ لَمّـــاع**

و يعد هذا البيت من أجمل الأبيات التي يذكرها الدارسون في باب الغزل عند المعتمد .

و- الأسماء في غزل المعتمد :

حفل الغزل منذ الشاعر الجاهلي امرىء القيس بذكر أسماء النساء اللواتي تغزل بهن ، بل أصبح ذكر اسم المحبوبة أمرا لا بد منه على سبيل التقرب و التودد " و للشعراء أسماء تخف على ألسنتهم و تحلو في أفواههم ، فهم كثيرا ما يأتون بها زورا نحو ليلى و هند و سلمى .. و فاطمة .. و أشباههن ، (2)"

(*)

و من ذلك قول امرىء القيس :

(3)

أفاطِمُ مَهْلا بَعْض هَذا التَّدَلُّل **وَ إنْ كُنْتِ قدْ أزْمَعْتِ صَرْمِي فأجْمِلِي

و هكذا ظل الشعراء يذكرون اسم المحبوبة حتى إن هناك من ارتبط اسمه باسم محبوبته كجميل بثينة و قيس ليلى و كثير عزة و غيرهم .

1- الديوان : 26

2- العمدة : 2/ 338

*- يبدو أن امرأ القيس اختار اسم فاطمة لخفتها على اللسان ، لأن ابنة عمه تدعى عنيزة و فيها نظم المعلقة .

3- شرح المعلقات السبع : 20

و قد سار المعتمد على هذا النهج فهو في كل مرة يذكر اسم المرأة التي حظيت بشعره ، فهي حينا سحر :

(1)

عَفَا اللهُ عَنْ سَحَرَ عَلَى كُلّ حَالَـةٍ * وَ لا حُوسِبَتْ عَمّا بِهَا أنَا وَاجِد**

و هي حينا آخر جوهر :

(2)

سَمَوْكِ بِالجَوْهَر مَظْلُومَـــــةً * مِثْلكِ لا يُدْرِكهُ غَائِـصُ**

و لعل جوهر هي ذاتها جوهرة :

(3)

دَرَتْ بِأنّي عَاشِقٌ لاسْمِهَا * فَلَمْ تُرِدْ لِلْغَيْظِ أنْ تَذْكُـــرَه**

و لجوهرة هذه منزلة خاصة عنده ، فهو يذكرها مجددا :

(4)

جَوْهَرَةَ عَذْبَتِـــــي * مِنْكِ تَمَادِي الغَضَـــب**

و من جوهرة إلى أم عبيدة :

(5)

سَقَى اللهُ صَوْبَ القَطْرِ أمَّ عُبَيْدَةَ * كَمَا سَقَتْ قَلْبِي عَلَى حَرِّهِ بَرْدَا**

بيد أن الاسم الذي ظل المعتمد يذكره كناية و تصريحا ، هو اسم زوجته اعتماد الرميكية حتى إنه اشتق اسمه من اسمها فأصبح " لقبه الرسمي

1- الديوان : 31
2- م ن : 32
3- م ن : 33
4- م ن : 34
5- م ن : 48

(1)"
في تاريخ دولة بني عباد بعد أن عرف بالظافر .
(*)
و اعتماد هذه كانت رفيقة درب المعتمد و حظيته و أم أولاده ، و مهوى فؤاده

تقول زيغريد هونكه : " كان المعتمد شاعرا غنائيا شهيرا ، خضع لحب
(2)"
رميكة خضوعا أعمى ... و تغنى فيها بشعره العذب الجميل .

و قد بلغ من تدليله لها – كما أسلفنا – أن جعلها تمشي على المسك و العنبر

لاشتهائها المشي على الطين ، و من شعره فيها :
(3)
تَظُنُّ بِنَا أُمُّ الرَّبِيعِ سَآمَـةً * أَلا غَفَرَ الرَّحْمَنُ ذَنْبًا تُوَاقِعُـه**

انظر إليه كيف جعل سوء ظن اعتماد به ذنبا عظيما يرجو من الله مغفرته ؛

لأن مجافاته إياها بعيدة الحدوث ، فإذا ظنت ذلك كان ذنبا يستحق طلب

المغفرة .

و يبين في موضع آخر كيف سكن حب اعتماد قلبه فلم يتسع لغيره :
(4)
حُبُّ اعْتِمَادٍ فِي الجَوَانِحِ سَاكِنٌ * لا القَلْبُ ضَاقَ بِهِ وَ لا هُوَ رَاحِلِ**

1- القطوف اليانعة : عبد الله أنيس الطباع : 196
*- كان فاتحة حب المعتمد لاعتماد ذلك البيت الذي أجازته فيه في شطره الثاني :
صنع الريح على الماء زرد ** أي درع لقتال لو جمد ؟
- ينظر : م ن : 196 -
2- شمس العرب تسطع على الغرب : 517
3- ديوان المعتمد : 33
4- م ن : 38

و يقول في السياق نفسه :

(1)

فَمَا حَلَّ خِلٌّ مِنْ فُؤَادِ خَلِيلِهِ *** مَحَلّ اعْتِمَاد مِنْ فُؤَادِ مُحَمَّد

وانظر إليه و هو يضمن اسم اعتماد في مقطوعة شعرية ، تلك هي الصلة القوية و الحب الآسر :

أَغَائِبَةَ الشَّخْص عَنْ نَاظِـري *** و حَاضِرَةً فِي صَمِيمِ الفُـؤَاد
عَلَيْكِ السَّلامُ بِقَدْرِ الشُّجُـون *** و دَمْعِ الشُّؤُون و قَدْرِ السُّهَاد
تَمَلَّكْتِ مِنِّي صَعْبَ المَرَامِـي *** و صَادَفْتِ وُدِّي سَهْلَ القِـيَاد
مُرَادِي لُقْيَاكِ فِي كُلِّ حِينٍ *** فَيَا لَيْتَ أَنِّي أُعْطَى مُـــرَادِي
أُقِيمِي عَلَى العَهْدِ مَا بَيْنَـنَا *** و لا تَسْتَحِيلِي لِطُولِ البِـعَـاد
دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلْوَ فِي طَيِّ شِعْرِي *** وَأَلَّفْتُ فِيهِ حُرُوفَ اعْتِمَاد(2)

إلى هنا نجد المعتمد اتجه في الغزل اتجاهات ثلاثة ؛ أما الاتجاه الأول فهو الغزل العذري وأما الثاني فهو الغزل الماجن ، و أما الثالث فهو الغزل العادي الذي يعنى بوصف المرأة دون مغالاة .

وعليه فالمعتمد لم يخرج في شعره الغزلي ، في الغالب ، عن دائرة القدماء ، و لا عمن عاصره،فالمعاني التي ذكرها متداولة على ألسنة الشعراء، و مما يلفت الانتباه هو مزاوجة الشاعر بين عناصر القوة و معاني الرقة، فهو يذكر الحرب ووسائلها و أجواءها ، و يقرنها بذكر الجمال و عناصره و أجوائه .

1- الديوان : 51
2- م ن : 40

و مما يلاحظ أيضا غلبة التصنع في غزليات المعتمد ، و إن كنا نستثني شعره الذي نظمه في اعتماد إذ فاض رقة و عذوبة ، و كشف بحق عن شاعر رقيق يهزه الجمال كما يهز النسيم وريقات الأغصان .

الفصل الثاني

أسرياته

المعتمد

لقد تعددت أنواع الغربة فمن: غربة نفسية وغربة اجتماعية و أخرى سياسية ، إلا أن معناها بقي واحدا على مر الزمن ؛ فهي تعني البعد بكل أشكاله ، و مثلها التغريب و الاغتراب ،يقول ابن منظور : " التغريب : النفي عن البلد وغرب أي بعد .. و الغربة و الغرب : النزوح عن الوطن .. قال المتلمس :

(1)

ألا أبْلِغا أقْناءَ سَعْدِ بْن مَالِكٍ * رسَالَةَ مَنْ قَدْ صَارَ فِي الغُرْبِ جَانِبُه .**

و الغربة " من طبيعة الإنسان ، بل يمكن القول إنها دافع أساس من دوافعه . و لقد عني العرب قديما بموضوع الغربة ، إحساسا و تنظيرا ، و كان لمصطلح الغربة عندهم حضور واسع فقد ذكرت " المصادر العربية أن الإنسان الجاهلي قد ربط بين الغربة و كثير من المعاني التي تتعلق بها . وفي هذا يقول الجاحظ : " ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة و الاغتراب و الغريب .

(2)"

(3)"

(4)"

فالغراب عند العرب هو رمز البعد و الفراق لذلك سموه غراب البين كقول عنترة العبسي :

1- لسان العرب : ابن منظور : مادة (غرب)
2- الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث : د/ عمر بوقرورة : 13
3- نفسه : 14
4- الحيوان : الجاحظ : 316/2

(1)

ألا يَا غُرَابَ البَيْنِ فِي الطيَرَانِ * أعِرْنِي جَنَاحًا قَدْ عَدِمْتُ بَنَانِي**

وإذا كان عنترة طلب من غراب البين – بنوع من السخرية – جناحا ليلحق الأحبة ، فإن ابن الرومي أمطره بوابل من الشتم و السب :

(2)

قُلْ لِغُرَابِ البَيْنِ تَبًّا لَهُ * إذَا تَعَاطَى القَوْلَ فِي مَذْهَـبِ**

أنْتَ غُرَابٌ جَيِّدُ أحْوَالِـهِ * مَا لَزِمَ الصَّمْتَ وَ لَمْ يَنْعَـبِ**

و ليس من شك في أن أشد أنواع الغربة قسوة ؛ الغربة عن الوطن و الابتعاد عنه ، و الشاهد في ذلك قوله تعالى : **(وَ لَوْ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنْ** (3)

اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) .

هذا النص القرآني الكريم يبرز مكانة الوطن بالنسبة للإنسان حتى إنه سوى بين قتل النفس و بين الخروج منه (4)" .

و الابتعاد عن الوطن قد يكون اختياريا ، كما قد يكون إجباريا ، فإن كان الأول تعللت النفس بالرجوع ، أما إذا كان الثاني فتلك هي الطامة الكبرى لتعسر العودة و بعد الأوبة .

1- ديوان عنترة بن شداد : 69

2- ديوان ابن الرومي : 1/ 199- 200

3- سورة النساء : الآية 66

4- ينظر : الاغتراب في الشعر الأموي : فاطمة السويدي : 03

و للعرب أشعار كثيرة في الغربة و معاناتها – بنوعيها الاختياري و الإجباري – فهذا الشنفرى يعلن أنه اختار الابتعاد عن قومه عن طوع و بعد نظر ، لأنهم لم يدركوا قيمته ، فمقامه ليس معهم و لكن مع الوحوش و السباع :

أقيمُوا بَنِي أمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُم * فإنّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأمْـيَل** (1)

و لِي دُونَكُمْ أهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ * و أرْقَط زُهْلُولٌ و عَرْفَاءُ جَيْأل**

فاختيار الشنفرى الابتعاد عن قومه كان نابعا عن شعوره بالغربة بينهم ، ومثله أحساس المتنبي :

أنا في أمَّة تَدَارَكَهَا اللّـــ ***هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ في ثَمُود (2)

و مهما يكن ، فإن الغربة بين الأهل هينة إذا قورنت بالغربة بين الأجانب و قد عبر عن ذلك الشافعي واصفا إحساس الغريب في قوله :

إنّ الغَرِيبَ لهُ مَخَافَةُ سَارِق * و خُضُوعُ مَدْيُون و ذِلّةُ مُوثَق**

فإذا تَذَكّرَ أهْلَهُ و بِلادَهُ * فَفُؤَادُهُ كَجَنَاح طَيْرٍ خَافِـــــق**(3)

فالغريب يخافه الناس خوفهم من السارق ، وهو إلى جانب هذا يحس بخضوع و ذلة كبيرين ؛ شعور المديون الذي تخنقه القيود أو الأسير الذي تكبله القيود. و في المعنى نفسه يصور المتنبي غربة الفتى العربي في بلاد الروم إذ قال :

1- ديوان الشنفرى : 55
2- ديوان المتنبي : 54
3- ديوان الشافعي : 99

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيبًا فِي المَغَانِي *** بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

(3)

و لَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا *** غَرِيبُ الوَجْهِ وَ اليَدِ و اللِّسَانِ

مهما كانت أرض الأجانب جميلة ، يظل فؤاد الفتى العربي فيها معلقا بنسيم وطنه ، و هواء بلاده لاستحالة العيش وسط هؤلاء الأجانب الذين يخالفونه في كل شيء .

و يفصل أبو تمام في الأمر قائلا :

(2)

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى *** وَ حَنِينُهُ أَبَدًا لأَوَّلِ مَنْزِلِ

قد يتعود المرء الديار و الأمكنة و لكن يبقى حنينه إلى منزله الأول ، و شوقه إلى وطنه قوي الحضور ، يقول الشافعي مشتاقا إلى غزة مسقط رأسه :

و إِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلى أَرْضِ غَزَّةَ *** و إِنْ خَانَنِي بَعْدَ التَّفَرُّقِ كِتْمَانِي

(3)

سَقَى اللهُ أَرْضًا لَوْ ظَفِرْتُ بِتُرْبِهَا *** كَحَلْتُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ أَجْفَانِي

انظر إليه و هو يدعو بالسقيا لغزة مصورا شدة شوقه إليها و لترابها الذي تمناه كحلا يكتحل به .

1- ديوان المتنبي : 54

2- ديوان أبي تمام : 2/ 447

3- ديوان الشافعي : 122

1- شعر الغربة في الأندلس :

لم تكن الأندلس الموطن الأصل للعرب ، على غرار الجزيرة العربية ، و لكنهم وفدوا إليها من أقاصي الأرض و دانيها ، و قد كان الوافدون إليها يشعرون – لأمر ما – بالغربة و الشوق إلى موطنهم الأصل ، فمن " غريب الصدف أن يكون أول شعر أنشد في هذه الجزيرة أبيات في تصوير الغربة و الحنين إلى المشرق تنسب لعبد الرحمن الداخل ، يخاطب فيها نخلة منفردة فيربط بين الغربتين :

(1)

نَشَأَتِ بِأَرْضٍ أَنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ * فَمِثْلُكِ فِي الإِقْصَاءِ و المُنْتَأَى مِثْلِي**

كان هذا في البداية ، فما إن حلوا بها و تفيئوا ظلالها وشربوا ماءها ، حتى أصبحت أحب الأرض إليهم ، يذودون عنها ، و يبذلون في سبيل سلامتها الغالي و النفيس ، لدرجة أصبح الخروج منها ضربا من الشقاء و العذاب ، بل إن هناك من الشعراء من كان يحن إلى مسقط رأسه و هو في وطنه الأندلس .

و شعراء الأندلس الذين عبروا عن الغربة كثر منهم : ابن زيدون (*) وابن دراج وابن خفاجة و الأعمى التطيلي و ابن الخطيب .. و غيرهم .

1- الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح : 53

*- يعد ابن سعيد أكثر الشعراء الذين عبروا عن الغربة التي كادت أن تكون ديوانا كاملا من شعره – ينظر : دراسات في أدب المغرب و الأندلس : فوزي سعد عيسى : 30

2- المعتمد شقي الغرباء :

عانى الكثير من الشعراء وطأة الغربة ، و تجرعوا كأس ويلاتها ، و لكن الأمر يختلف عند المعتمد لأن مأساته مضاعفة ؛ فهو ليس رجلا عاديا و لكن شاعر رقيق و فارس فذ ، و هو ليس من عامة الناس و لكن ملك عربي صميم ، فكيف يبعد عن وطنه ؟ و كيف تكبله القيود ؟ و كيف يصرف الدهر عنه وجهه ؟

فأي آلام هذه التي تنوء بحملها الجبال ؟

وتجربة هذا الشاعر تجربة خاصة ، لأن أغلب الشعراء الذين نظموا في هذا الباب عاشوا في كنفه ، تقول الباحثة فاطمة طحطح : " لقد كان هذا الشاعر فريدا في تجربته فهو يتميز عن باقي شعراء الغربة و الحنين بكونه كان ملكا، و كان راعي هؤلاء الشعراء بل راعي شعراء الغرب الإسلامي كله . (1)"

و لأن معاناة المعتمد معاناة تستحق الوقوف عندها طويلا ، رأينا أنه من الأهمية بمكان أن نشير مجددا إلى الأسباب التي آلت به إلى هذا المآل ، إنها الزلاقة . (*)

1- الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : 187

*- سبق و أشرنا إلى موقعة الزلاقة في مدخل هذا البحث .

2- أ- الزلاقة : بداية النهاية :

كانت الزلاقة معركة فاصلة في التاريخ الإسلامي ، و لكنها كانت أيضا النقطة الفاصلة في حياة المعتمد ؛ فمنها يبدأ العد التنازلي لنهاية الملك (*) العبادي ؛ جفوة فحصار فأسر فنفي .

و قد صور المقري مشهد الأسر ، وخروج المعتمد و أهله إلى السفن التي حملتهم إلى حيث لا رجوع في قوله " و حملتهم الجواري المنشآت و ضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، و الناس قد حشروا بضفتي الوادي و بكوا بدموع كالغوادي (1)" .

و بقدر ما كانت الزلاقة نكبة في حياة المعتمد ، كانت كذلك نعمة على شعره الذي أخذ يعرف منحى آخر غير ما كان عليه في السابق ، إذ زاوج بين حياته المأساوية و شعره فنتج عن ذلك تجربة شعرية عميقة و مؤثرة .

2- ب – التجربة الشعرية :

يجزم الدارسون أن تجربة المعتمد الشعرية التي تمخضت عن معاناة أغمات هي التي كتبت له الخلود ، و جعلته في مصاف كبار الشعراء ، يقول

---

*- سبق الإشارة إلى هذا الموضوع في مدخل البحث .

1- نفح الطيب : 5 / 141

بطرس البستاني : " لا يعود خلود ابن عباد في الأدب إلى هذا الشعر،ولا إلى غيره من المنظومات التي قالها و هو خافض العيش في نعيم دولته ، و إنما يعود خلوده إلى ذلك الشعر الوجداني الخالص الذي قاله في نكباته . "(1)

2- ب- 1 : غريب المغربين :

جاء في الحلة السيراء أن المعتمد رأى في منامه كأن رجلا صعد منبر جامع قرطبة و أنشد الناس :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِيسَهُمْ *** فِي ذرَى مَجْدِهِم حِينَ بَسَقَ

سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُم *** ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَـــــق (2)

أدرك المعتمد أن هذا نعي لملكه فأنشد:

مَنْ عَزَا المَجْدَ إلَيْنَا قَدْ صَدَقْ *** لَمْ يُلَمْ مَنْ قَالَ – مَهْمَا قَالَ – صَدَقْ

.. أيُّهَا النَّاعِي إلَيْنَا مَجْدَنَا *** هَلْ يَضُرُّ المَجْدَ أنْ خَطَبًا طَـــرَقْ (3)

و تتكرر الوقائع و الأحداث، و يكذب المنجمون في أخطر الأمور و أعظمها (*)

و ها هو المعتمد يبدي سخطه على منجمه الذي أطمعه بالنصر المبين ، لكن ابن تاشفين كان له بالمرصاد :

أرْمَدْتَ أمْ بِنُجُومِكَ الرَّمَد *** فَقَدْ عَادَ ضِدًّا كُلَّ مَا تَعِد

1- أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث : 156

2- ديوان المعتمد بن عباد: 147

3- م ن : 147

*- إشارة إلى كذب المنجمين أيام المعتصم العباسي حول فتح عمورية .

هَلْ فِي حِسَابِكَ مَا تُؤَمِّلُــهُ *** أَمْ تَصْرِمَ عِنْدَكَ الأَمَدُ(1)

اختلت حسابات المنجم ، و أظلمت نجومه، و أبى القدر إلا أن يخالفه و لاحت في الأفق جيوش المرابطين جحافل تسد البر و البحر ، فكان الخضوع أمرا لا بد منه و تلك مشورة المقربين إليه .

فهل كان ليعمل بها ؟ و هل كان ليخضع بهذه السهولة ؟

مطلقا فالمعتمد لا يزال يحمل بين جنبيه نفسا قوية و أبية ، تؤثر السم الناقع على الذل و المسكنة :

قالوا : الخُضُوعُ سِيَاسَــةٌ *** فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُم خُضُــوع

و ألذ مِنْ طَعْمِ الخُضُــوع *** عَلَى فَمِي السَّمُّ النَّقِــيعُ (2)

و يستمر في إنشاد أبيات كلها عزة و إباء : ضاع الملك و لكن لا يزال القلب يخفق بين الضلوع ، و شرفه الرفيع – مهما حصل – سيظل رافعا هامته :

إنْ يَسْلُب القَوْمُ العِدَا *** مُلكِي و تُسْلِمُنِي الجُمُوع

فالقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِــهِ *** لَمْ تُسْلِمِ القَلْبَ الضُلُــوع

لَمْ أَسْتَلِبْ شَرَفَ الطِبَــا *** ع ، أَيُسْلَبُ الشَرَفُ الرَفِيع ؟ (3)

و المعتمد إذا خرج إلى الوغى لم يرتد درعا ، لأن مثله لا يهاب الموت

1- الديوان : 148
2- م ن : 150
3- م ن : 150

و لا يرجو الرجوع :

و بَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى القَمِيــصُ عَنِ الحَشَى شَيْءٌ نَفُوع
(1)
مَا سِرْتُ قَط إلى القِتَــا *** لِ وَ كَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوع

و على الرغم من شجاعة المعتمد و استبساله في الدفاع عن مملكته ، إلا أن السقوط كان مآله و أغمات سجنه ، فلما تجلى له جبل درن أنشد :

هَذِي جِبَالُ دَرَن *** قَلْبِي بِهَا ذو دَرَن

يَا لَيْتَنِي لَــمْ أَرَهَا *** و لَيْتَهَا لَمْ تَرَنِي
(2)
كَأَنَّهَا تُخْبِرُنِــي *** بِأَنَّهَا تُقْبِرُنِــــي

و يستمر في سرد المعاناة ، و تصوير المأساة عند حلوله بأرض المرابطين التي وجد الناس فيها يستسقون ، فأنشد :

خَرَجُوا لِيَسْتَسْقُوا فَقُلْتُ لَهُمْ *** دَمْعِي يَثُوبُ لَكُمْ عَنِ الأَنْوَاء
(3)
قَالُوا : حَقِيق فِي دَمْعِكَ مَقْنَعٌ *** لَكِنَّهَا مَمْزُوجَةٌ بِدِمَــــاء

أتراها الدماء التي تركتها المعركة ، أم تراها دماء الفؤاد المكلوم و القلب الجريح ؟

1- الديوان : 150- 151
2- م ن : 151
3- م ن : 156

بلاط الشعراء :

لم ينس الشعراء ملكهم الشاعر ، بل لم يقتنعوا بعد أن الملك الذي كانت تتوافد عليه جموع الشعراء ينشدونه أروع الأشعار ، استحال إلى رجل فقير مأواه كوخ حقير ، فشتان بين اشبيلية و أغمات .

و مع ذلك ، ظل الشعراء يفدون إليه من كل فج بين من يرجو العطاء ، و بين من يأمل اللقاء ، ومن هؤلاء الذين أنشدوا المعتمد تكسبا الحصري الضرير ، فما إن سمع أهل الكدية ذلك حتى هبوا إلى المعتمد زرافات يطمعون في العطاء ، فرد عليهم :

شُعَرَاءُ طنْجَةَ كُلَّهُمْ و المَغْرب * ذهَبُوا مِنَ الإغرَابِ أبْعَدَ مَذْهَـب**

سَأَلُوا العَسِيرَ مِنَ الأسِير ، و إنَّهُ * بسُؤالِهِمْ لأحَقُّ مِنْهُمْ فاعْجَـب**

لوْ لا الحَيَاءُ و عِزةٌ لخْمِيَّة * طيَّ الحَشَا ، لحَاكَاهُمْ فِي المَطلَـــب** (1)

تعجب المعتمد من فعل شعراء المغرب الذين سألوه العطاء ، و هو أحوج إليه منهم ، بل لربما كان هو سائلهم لولا نخوته و عزة نفسه .

و إذا كانت هذه حال شعراء المغرب ، فإن الأمر يختلف عند شاعر كابن حمديس الذي شد الرحال لزيارة المعتمد فمنعه الحراس ، الأمر الذي حز في نفس الأسير، فكتب إليه يعتذر :

1- الديوان :154

حُجِبْتَ فلا والله مَا ذاكَ عَنْ أمْري*** فاصْغ فدَتْكَ النّفسُ سَمْعًا إلى عُذْري

فمَا صَارَ إخْلالٌ لِلمكَارِمِ لِي هَوًى *** وَ لا دَارَ إخْجَالٌ لِمِثْلِكَ فِي صَـدْري (1)

انظر إليه و هو يقدم الأعذار بين يدي ابن حمديس ، ملتمسا منه العفو فالأمر لم يعد بيده ، و لم يعد الآمر الناهي ، ثم رأى أن يطيب خاطره فنوه بشعره الذي كان يسحر الألباب :

وأنْتَ ابْنُ حَمْدِيس الذِي كُنْتَ مُهْدِيًا لنَا السِّحرَ إنْ لَمْ نَأتِ فِي زَمَنِ السِّحْر (2)

و يقصد شاعر آخر المعتمد ، إنـــه ابن اللبانة الذي توطدت علاقته بـــه و تجاوزت طبيعة علاقة الشاعر بملك ممدوح إلى علاقة صداقة و محبة لا تدنسها شوائب المادة . (3)

فلما عزم ابن اللبانة على الرحيل ، أهداه المعتمد هدية ثم أنشد :

إلَيْكَ النَّزُرُ مِنْ كَفِّ الأسِير *** فإنْ تَقْنَعْ تَكُنْ عَيْنَ الشَّكُور

وَ لا تَعْجَبْ لِخَطبٍ غَضَّ مِنْهُ *** أليْسَ الخَسْفُ مُلْتزمَ البُدُور ؟ (4)

1- الديوان : 172- 173

2- م ن : 173

3- ينظر : شعر ابن اللبانة الداني : تح : محمد مجيد السعيد : 06

4- الديوان : 174

انظر إليه و هو يرجو من ابن اللبانة قبول الهدية المتواضعة ، فذلك أقصى ما يقدمه أسير مثله كان بالأمس بدرا منيرا فأدركه الخسوف .

و لكن ابن اللبانة رد على المعتمد هديته ، و هو ما حز في نفسه فأنشد :

(1)

رَدَّ برِّي بَغْيًا عَليَّ وَ برًّا *** و جَفَا فاسْتَحَقَّ لوْمًا و شُكْرًا

أدرك المعتمد أن الداني إنما رد عليه هديته برا به وشفقة على حاله ، فهو يستحق الشكر و لكن فعله هذا مع الملك يعد بغيا ، لأن المعتمد لم يتعود أن ترد عطاياه .

و ابن اللبانة حين عاد إلى وطنه ترك فؤاده مع المعتمد يواسيه و يربت عليه ، فيرد الأسير عليه بأشعار ذات شجون :

تحَلَيْتَ بالدَّانِي و أنْتَ مُبَاعِدٌ *** فيَا طِيبَ بَدْءٍ لوْ تَلاهُ تَمَـــام

(2)

أضَاءَ لنَا أعْمَاتَ قُرْبُكَ بُرْهَةً *** و عَادَ بهَا حِينَ ارْتَحَلتَ ظَـلام

عاتب المعتمد صديقه معاتبة لطيفة ، فخاطبه بأن اسمه الداني – أي القريب – ولكنه بخلاف اسمه بعيد ، ثم هو يسبغ على ابن اللبانة صفة الضياء ، إذ أضاءت أعمات به ، فلما رحل أظلمت من جديد .

1- الديوان : 175

2- م ن : 177

2- ب- 2 – غربة المكان وقسوة الزمان :

المكان غير المكان :

تغير في حياة المعتمد كل شيء : اللقب و السكن و الوطن و الصحبة وأمور كثيرة ، هو الآن في أغمات " في سجنه يتفكر في تقلب الأقدار و تصريف الأمور ، فيصور كل ما يدور حوله أو يخطر في خلده بأشعاره الرقيقة ، وأسلوبه المؤثر : (1)

غريبٌ بأرْض المغْربينَ أسِير *** سَيَبْكِي عَلَيْهِ مِنبَرٌ وَ سَرير (*) (2)

و أغمات لم تسلب المعتمد حريته و حسب ، و لكنها سلبته سعة ذات اليد و البذل بلا حد :

إذَا قِيلَ فِي أغمَاتَ قَدْ مَاتَ جُودُهُ *** فمَا يُرْتجَى للجُودِ بَعْدُ نُشُور (3)

ليس هذا فقط ، فإنه لم يذل و لم يرق ماء وجهه إلا ها هنا ، يقول منوها بشرفه و شرف أجداده :

أذلَّ بَنِي مَاء السَّمَاءِ زمَانُهُمْ *** و ذلَّ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ كَبير (4)

1- انتصارات يوسف ابن تاشفين : حامد محمد خليفة : 210

*- كتب المعتمد هذا البيت لابن حمديس فرد عليه :

جرى بك جد بالكرام عثور ** و جار زمان كنت فيه تجير

- ديوان ابن حمديس : 268-

2- ديوان المعتمد : 171

3- م ن : 171

4- م ن : 171

و الشعور بالذل سيظل يرافق المعتمد إلى أن يواريه التراب :

(1)

و أبْقى أسَامُ الذلّ في أرْض غُرْبَةٍ **و مَا كُنْتُ لوْلا الغدْر ذاكَ أسَام

و أغمات أيضا سيمفونية حزينة ، تورث النفس ثقلا و كآبة :

(2)

غنَّتكَ أغمَاتيَّة الألحَان * ثقلتْ عَلى الأرْوَاح و الأبْدَان**

و مر عليه سرب من القطا يمرح في الجو لا تكبله قيود و لا أغلال ، فشعر بالضيق فأنشد :

(3)

بكَيْتُ إلى سِرْبِ القطا إذ مَرَرْنَ بي **سَوَارحَ لا سِجْنٌ يَعُوقُ و لا كبْل

فهو مسلوب الحرية ، و هي تطير في الهواء الطلق ، و لكنه لا يتمنى بأي حال من الأحوال أن تقع و فراخها في الشرك ، كحاله و حال أبنائه الذين يشتاقون الماء و الظل :

(4)

ألا عَصَمَ الله القطا فِي فِرَاخِهَا * فإنَّ فِرَاخِي خَانَهَا المَاءُ و الظّلّ**

شكوى الزمن :

يقف المتتبع لأسريات المعتمد على إكثاره من شكوى الزمن و البرم به ،

1- الديوان : 177
2- م ن : 183
3- م ن : 187
4- م ن : 188

و السخط عليه :

(1)

قَبَّحَ الدَّهْرُ فَمَاذَا صَنَعَا *** كُلَّمَا أَعْطَى نَفِيسًا نَزَعَا

و هو يخاطبه حينا آخر بحدة أقل ، فيعاتبه على شدته عليه و عدم غفران ذنوبه :

أَبَى الدَّهْرُ أَنْ يُقْنِي الحَيَاءَ و يَنْدَمَا

(2)

و أَنْ يَمْحُو الذَنبَ الذِي كَانَ قَدَّمَا

و يتألم من غِيَر الأيام التي أحالته المأمور المنهي بعد أن كان الآمر الناهي :

(3)

قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأَمُرْهُ مُمْتَثِلا ** فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مَنْهِيًّا و مَأْمُورا

تلك أعاجيب الدهر الذي سلب المعتمد الإرادة ، فصيره مسودا بعد أن كان سيدا ، و لكن الحظ قد يبتسم لبعضهم كما في قول البحتري :

(4)

مَذْهَبٌ فِي البَلاءِ بَرَزْتَ فِيهِ ** قَدْ يُسَادُ الشَّرِيفُ ثُمَّ يَسُود

و الدهر لا يؤمن غدره ، و المعتمد يدرك ذلك :

(5)

مَتَى رَأَيْت صُرُوفَ الدَّهْر تَارِكَة ** إِذَا انْبَرَتْ لِذَوِي الأَخْطَار أَرْمَاقَا

1- الديوان : 154
2- م ن : 168
3- م ن : 169
4- شرح ديوان البحتري : إيليا حاوي : 2/ 420
5- ديوان المعتمد : 181

و هو حنق عليه و على غيره من الأحرار :

(1)

حَنِقَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا فَسَطَا *** وَ كَذَا الدَّهْرُ عَلَى الحُرِّ حَنِق

و الشاعر يدرك أن كل ما أصابه هو من القدر :

(2)

مَاذَا رَمَتْكَ بِهِ الأَيَّامُ يَا كَبِدِي *** مِنْ نُبْلِهِنَّ وَ لَا رَامٍ سِوَى القَدَر

و يعزي نفسه ، فيقنعها بأن كل سلطان في الدنيا فوقه سلطان الدهر :

(3)

أَمَا سَمِعْتَ بِسُلْطَانٍ شَبِيهِكَ قَدْ ** بَزَّتْهُ سُودُ خُطُوبِ الدَّهْرِ سُلْطَانا

ثم إن الدهر متقلب متلون :

(*) (4)

مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ *** فَإِنَّمَا بَاتَ بِالأَحْلَامِ مَغْرُورا

لا سبيل إلى الصبر :

يقف المعتمد أمام هذه النكبات و المصائب التي ألمت به ، و أرزاء الدهر التي رماه بها حائرا : أيصبر و يتجلد ؟ أم يطلق العنان لدموعه و أناته ؟

الواقع أن أسريات المعتمد تتراوح بين هذين الاتجاهين ؛ الصبر و اللاصبر ،

1- الديوان : 189

2- م ن : 189

3- م ن : 192

*- مثل هذا قول أبي البقاء الرندي :

لكل شيء إذا ما تم نقصان *** فلا يغر بطيب العيش إنسان

- أزهار الرياض : المقري : 1/ 28

4- ديوان المعتمد : 169

فالشاعر يتجمل بالصبر أحيانا ، و يظهر القناعة و الرضا ، و أكثر ما يتجلى هذا في تلك الحكم و الزهديات – على قلتها – التي نظمها في أغمات :

أَرَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّة لاَ تُوَاتِي *** فَأَجْمِلْ في التَّصَرُّفِ وَ الطِّلاب

فَأَوَّلُهَا رَجَاءٌ مِنْ سَـرَابٍ *** وَ آخِرُهَا رِدَاءٌ مِنْ تُـــرَاب (1)

فهو يدرك تماما أن الدنيا لا تعطي بيد إلا لتصفع بالأخرى ، و أن حياة الإنسان هي أشبه بالسراب و آخرها مواراة في التراب .

و يدعو في موضع مشابه إلى القناعة في هذه الدنيا ، و تعزية النفس إذا فارقت الوطن لأن في ذلك موتها الحقيقي :

اِقْنَعْ بِحَظِّكَ في دُنْيَاكَ مَا كَانَا *** وَ عَزِّ نَفْسِكَ إِنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا (2)

و قد يصل المعتمد ، أحيانا ، إلى أعلى درجات الصبر و التجلد ، فيعاتب عينه التي لا تكف عن البكاء كلما تذكرت الأيام الخوالي :

أَكُلَّمَا سَنَحَتْ ذِكْرَى طَرِبْتَ لَهَا *** مَجَّتْ دُمُوعُكَ في خَدَّيْكَ طُوفَانَا ؟ (3)

و إذا كان المعتمد قد أظهر صبرا في مناسبات عديدة ، إلا أن نفسه كانت تخونه في أحايين كثيرة ، فيفزع و يجزع و يبكي بحرارة و ألم كبيرين :

1- الديوان : 152
2- م ن : 192
3- م ن : 192

أمَا لانْسِكَابِ الدَّمْعِ في الخَدِّ رَاحَةٌ**لَقَدْ آنَ أَنْ يَفْنَى وَ يَفْنَى بِهِ الخَدّ (1)

و إذا كان من طبيعة الإنسان أن يسر بالدعاء بطول العمر ، فإن الأمر يختلف عند المعتمد الذي بات يفضل الموت على الحياة لدرجة أصبحت فيها المنية أحب الأشياء إليه :

دَعَا لِي بِالبَقَاءِ وَ كَيْفَ يَهْوَى *** أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ البَقَاءُ (*)

أَ لَيْسَ المَوْتُ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ *** يَطُولُ عَلَى الشَّقِيِّ بِهَا الشَّقَاءُ

فَمَنْ يَكُ مِنْ هَوَاه لِقَاءُ حُبٍّ *** فَإِنَّ هَوَايَ مِنْ حَتْفِي اللِّقَاء (2)

بيد أن الذي قصم ظهر المعتمد أكثر من أي شيء آخر، هو فقدانه أولاده، فالأسير يظل متعلقا بشعاع أمل ، فإذا المصائب تنزل عليه تباعا ، و أي مصيبة أكبر من فقدان الراضي و المأمون اللذين قتلتهما جيوش المرابطين؟ يقول متألما :

يَقُولُونَ صَبْرًا لاَ سَبِيلَ إلى الصَّبْرِ**سَأَبْكِي وَأَبْكِي مَا تَطَاوَلَ مِنْ عُمْرِي (3)

مَدَى الدَّهْرِ فَالْيَبْكِ الغَمَامُ مُصَابَهُ**بِصِنْوَيْهِ يُعْذَرْفِي البُكَاءِ مَدَى الدَّهْر

انظر إليه و هو يجزع هذا الجزع معلنا أن لا صبر و لكن بكاء مدى الدهر،

1- الديوان : 185

*- يقصد الوزير أبُو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر .

2- م ن : 176

3- م ن : 162

بكاء الخنساء على صخر إذ قالت :

(1)
فَلاَ وَ الله لا أَنْسَاكَ حَتَّى *** أُفَارِقَ مُهْجَتِي وَ يُشَقَّ رَمْسِي

و الشاعر لم يفقد ابنين عاديين و لكن كوكبين شامخين :

(2) (*)
هَوَى الكَوْكَبَانِ الفَتْحُ ثم شَقِيقُهُ**يَزِيدُ فَهَلْ بَعْدَ الكَوَاكِبِ مِنْ صَبْر؟

و ما يزيد الشاعر لوعة ، أن ابنيه قضيا نحبهما في زهرة الشباب :

(3)
تَوَلَّيْتُمَا وَ السِّنُّ بَعْدُ صَغِيرَةٌ ** وَ لَمْ تَلْبَثِ الأَيَّامُ أَنْ صَغَّرَتْ قَدْرِي

لكن الشيء الذي وجد فيه الشاعر عزاءه ، هو وفاة ابنيه في ساحة القتال ، إذ ماتا ميتة الأبطال و ذلك خير لهما من رؤيته أسيرا مقيدا :

تَوَلَّيْتُمَا حِينَ انْتَهَتْ بِكُمَا العُلاَ ** إلى غَايَةٍ كُلٌّ إلى غَايَةٍ يَجْـرِي

(4)
فَلَوْ عُدْتُمَا لاخْتَرْتُمَا العَوْدَ في الثَّرَى**إذَا أَنْتُمَا أَبْصَرْتُمَاتِي فِي الأَسْر

و يصور المعتمد حزن اعتماد الذي لا يقل عن حزنه ، فصدرها يتقد نارا و لكنها ، أحيانا ، تظهر الصبر – على مضض – لنيل الأجر :

مَعِي الأَخَوَاتُ الهَالِكَاتُ عَلَيكُما ** وَ أُمُّكُمَا الثَّكْلَى المُضَرَّمَةُ الصَّدْر

1- ديوان الخنساء : 85
*- الفتح هو الراضي ، و يزيد هو المأمون .
2- ديوان المعتمد : 163
3- م ن : 163
4- م ن : 163

(1)
تُذَلِّلُهَا الذِّكْرى فَتفْزعُ لِلْبُكا ** وَ تَصْبِرُ- في الأحْيَانِ- شُحًّا عَلَى الأجْرِ

و المعتمد يأبى إلا أن يبكي الدهر ، فإذا خانته دموعه عاتبها بشدة :

(2)
فَمَالِي لا أَبْكِي أَمْ القَلْبُ صَخْرَةَ**وَ كَمْ صَخْرَة في الأرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْر

و يستمر في رثاء أبنائه الذين ترك فقدهم فراغا كبيرا في حياته ، فجذوة القلب مشتعلة لا تنطفئ بل هي بركان ثائر مدى الدهر :

(3)
وَ نَارُ بَرْقِكَ تَخْبُو إثْرَ وَقْدَتِهَا ** وَ نَارُ قَلْبِي تَبْقَى الدَّهْرَ بُرْكَانا

فشتان بين نار البرق التي تنطفئ بعد ثوان ، ونار المعتمد المشتعلة أبدا .

و يتعجب الشاعر من قلبه الذي جمع بين الماء و النار ، و هما ضدان لا يلتقيان ، فالقلب من مضغة من ماء ، و النار أوقدتها الأحزان ، و لكن الدهر جمعهما و له في ذلك شؤون :

(4)
ضِدَّانِ أَلَّفَ الدَّهْرُ بَيْنَهُمَا ** لَقَدْ تَلَوَّنَ في الدَّهْرِ أَلْوَانَا

1- الديوان : 163
2- م ن : 165
3- م ن : 166
4- م ن : 166

اللجوء إلى الرحمن :

ظل المعتمد يتخبط في دوامة الحزن و الأسى ، فيجزع حينا و يتجلد حينا آخر ، و لكن لا شيء يداوي الفؤاد المكلوم إلا اللجوء إلى الرحمن ، وحده الذي يجبر كسر المحزون :

رَاحَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا دَعْوَةً *** جَبَرَ اللهُ العُفَاةَ الضُّيَّعَا (1)

و المعتمد يحسن الظن بالله ، و أن الله لن يخيبه :

قَلْبِي إِلى الرَّحْمَنِ يَشْكُو بَثَّهُ *** مَا خَابَ مَنْ يَشْكُو إِلى الرَّحْمَن (2)

و هو يؤمن أن الله سيعوضه خيرا :

فِي اللهِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ مَضَى عِوَضٌ ** فَاشْعِرِ القَلْبَ سلْوَانَاً وَ إِيمَانَا (3)

و هو يحمد الله على كل حال :

خَرَجْتُم جَمَاعَاتٍ وَ خُلِّفْتُ وَاحِدًا ** وَلله في أَمْرِي وَ أَمْرِكُمْ الْحَمْد (4)

و تتقد نار الجزع و الفزع ، فلا فرج و لا مخرج ، ثم يستدرك فيستغفر الله قائلا :

1- الديوان : 155
2- م ن : 183
3- م ن : 192
4- م ن : 186

أَسْرٌ وَ عُسْرٌ و لاَ يُسْرٌ أُؤَمِّلُهُ *** أَسْتَغْفِرُ اللهَ كَمْ للهِ مِنْ نَظَرِ (1)

و هذا شبيه بقوله :

وَطِّنْ عَلَى الكَرْهِ وَ ارْقُبْ إِثْرَهُ فَرَجَا ** وَ اسْتَغْفِرِ اللهَ تَغْنَمْ مِنْهُ غُفْرَانا (2)

التسلي بالمناجاة :

ليس من شك في أن أقسى اللحظات التي يمر بها الأسير هي حين يعدم الصديق و الخليل الذي يبثه أحزانه ، و يطارحه الشكوى ، و المعتمد كان محظوظا – إلى حد ما – في هذا الجانب ، إذ ظل بعض أبنائه معه و كذا اعتماد حظيته و موطن أسراره :

قَالَتْ : لَقَدْ هُنَّا هُنَا *** مَوْلاَيَ أَيْنَ جَاهُنَا ؟

قُلْتُ لَهَا : إلى هُـنَا *** صَيَّرَنَا إِلَهُـنَا (3)

و لكنه أحيانا ينفرد بنفسه فيناجيها :

أَنَّى غُلِبْتَ وَ كُنْتَ الدَّهْرَ ذَا غَلَبٍ ** لِلغَالِبِينَ وَ لِلسَّبَّاقِ سَبَّاقَا

قُلْتُ : الخُطُوبُ أَنَلْتَنِي طَوَارِقُهَا ** وَ كَانَ عَزْمِي لِلأَعْدَاءِ طَرَّاقَا (4)

1- الديوان : 190

2- م ن : 192

3- م ن : 191

4- م ن : 180- 181

و هو، في أحايين كثيرة،يناجي الجماد ، فيقول مخاطبا قيده :

قَيْدِي أَمَا تَعْطَفُنِي مُسْلِمًا *** أَبَيْتَ أَنْ تُشْفِقَ أَوْ تَرْحَمَا (1)

و يتوسل إليه أن يبقي على عظامه بعد أن نهش لحمه :

دَمِي شَرَابٌ لَكَ وَ اللَّحْمَ قَدْ *** أَكَلْتَهُ لا تُهَشِّمِ الأَعْظُمَا (2)

و حين لم يجد منه ردا ، توسل إليه بأطفاله :

ارْحَمْ طُفَيْلاً طَائِشًا لُبُّهُ *** لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتِيكَ مُسْتَرْحِمَا

وَ ارْحَمْ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلُـه *** جَرَّعْتَهُنَّ السُّمَّ وَ العَلْقَـمَا (3)

الرجولة الحقة :

لم تستطع الخطوب أن تمحو في المعتمد رجولته التي ظل متشبثا بها إلى أن قضى نحبه ؛ أسر و أرزاء و أصفاد " لكن دون أن تنطفئ جذوة رجولته تجاه آسريه و السدنة من معذبيه . (4)"

" يقول من منفاه مخيرا غير مدفوع .. منوها بإنجاز يوم العروبة و بصانع أفراحها القائد المرابطي .. و هو اعتراف من المعتمد .. دفع به إلى تحكيم

1- الديوان : 181
2- م ن : 181
3- م ن : 181
4- المعتمد بن عباد : نديم مرعشلي : 79

(1)"

منطق الشعر و الشهامة .

و الغريب في الأمر أن الأبيات التي سنوردها ، نظمها المعتمد إثر رفض ابنة القائد المرابطي منحه خباء :

و قَلْبِي نزُوعٌ إلى يُوسُف * فَلَوْلا الضُّلُوع عَلَيْه لَطَار**

و يَوْم العُرُوبَة ذُدْت العِدَى* نَصَرْتَ الهُدَى و أبَيْتَ الفِرَار**

وَلَوْلاكَ يَا يُوسُف المُتّقى * رَأينَا الجَزِيرَة لِلْكُفْرِ دَار** (2)

و يستأنف في تصوير بطولات يوم العروبة :

رَأَيْنَا السُّيُوفَ ضُحَى كالنُّجُو ***مِ و كاللَّيلِ ذَاكَ الغُبَار المُثَار (3)

ثم يشيد بشجاعة ابن تاشفين قائلا :

فَلِلَّه دَرُّك في هَوْلِـــه * لَقَدْ زَادَ بَأْسكَ فِيه اشْتِهَـــــارا**

تَزِيدُ اجْتِرَاءً إذا مَا الرِّمَا * حُ عِنْدَ التَّنَاجُزِ زِدْنَ اشْتِجَارا** (4)

و لا يكتفي المعتمد بالثناء على آسره ، و سالب ملكه ، بل يبشره بالثواب الذي سيلقاه في الدار الآخرة :

1- أندلسيات غرناطة و الشعر : 23

2- ديوان المعتمد : 159

3- م ن : 160

4- م ن : 160

سَتَلْقَى فِعَالَكَ يَوْمَ الحِسَـا *** بِ تُنْثَرَ بالمِسْكِ مِنْكَ انْتِـثَارا (1)

ليس هذا فحسب ، فمقامه يومئذ مقام العليين الذي يستدعي ثناء الشهداء :

وَ للشُّهَدَاءِ ثَنَاءٌ عَلَيْك *** بِحُسْنِ مَقَامِك ذَاكَ النَّهَارا

وَ أَنَّهُم بِكَ يَسْتَبشِـرُو *** نَ أَلَّا تَخَافَ وَ أَلَّا تُضَارَّا (2)

تلك سابقة أتى بها المعتمد ، إذ لا يعقل أن يثني على أسره الذي صيره بين ليلة و ضحاها من ملك تأتيه الدنيا منقادة إلى أسير فقير يثير الشفقة .

و لكنها النفس العربية الشهمة المولعة بالشجاعة لدرجة تجعلها تشيد بكل شجاع ، حتى و إن كان من ألد أعدائها .

2- ب- 3 – الماضي و الحاضر : المعادلة الصعبة :

إن استرجاع الذكريات السعيدة لا يغير من الحاضر شيئا ، بيد أن فيه نوعا من التسلية و الترويح عن النفس ، و إلى هذا لجأ المعتمد " فأحسن الأشياء التي تعرف و يتأثر لها .. هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها أو التألم منها .. كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة ، الأمر الذي يثمر " الوهم و السرور و الفرحة لكنه سرور ممتزج بالحسرة الدائمة (3)" . (4)"

1- الديوان : 160
2- م ن : 160
3- منهاج البلغاء و سراج الأدباء : أبو حازم القرطاجني : 21
4- دراسات في الأدب الأندلسي : محمد سعيد محمد : 123

و مأساة المعتمد تختلف عن مأساة الأسير العادي ، فألمه ألم نفسي و روحي " مبعثه التباين بين حياته الماضية ، و حياته في المنفى ، و أساسه الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيش في ظلها ، و البربرية التي وجد نفسه بين أنيابها في منفاه ، ذلك الاختلاف البعيد بين قصور اشبيلية و(كوخه في) المغرب . "(*) (1)

تبدلت حال المعتمد من النقيض إلى النقيض ، من العز إلى الذل ، حتى إن الحديد الذي كان سلاحه ذات يوم أصبح قيدا له يعضه عض الأسود :

تَبدَّلْتَ مِنْ عِزِّ ظِلِّ البُنُودِ * بِذُلِّ الحَدِيدِ وَ ثِقلِ القُيُودِ**

وَ كَانَ حَدِيدِي سنَانًا ذَلِيقًا * وَ عَضْبًا دَقِيقًا صَقِيلَ الحَدِيد**

فَقَدْ صَارَ ذَاكَ وَ ذَا أَدْهَمَا * يَعضُّ بِسَاقَيّ عَضَّ الأسُود** . (2)

كرم و فروسية :

عاش المعتمد أيام الأسر في فقر مدقع ، و ما كان يعزيه إلا تذكره للأيام الخوالي التي كان ينفق فيها بلا حدود ، بل و يسابق الغمام في الجود ، حتى أتت عليه أيام عجاف لم تبق و لم تذر ، يقول متذكرا متحسرا :

---

*- البربرية مصطلح أطلقه الغربيون و المستشرقون على السكان الأصليين لشمال إفريقيا (الأمازيغ)، و تعني الحياة الموحشة البعيدة عن الحضارة .

1- تاريخ الفكر الأندلسي : أنجيل بالنثيا : 102

2- ديوان المعتمد : 170

مَنْ إذَا الغَيْثُ هَمَى مُنْهَمِر *** أَخْجَلَتْه كَفُّهُ فَتَقَطَّعا

مَنْ غَمَامُ الجُودِ مِنْ رَاحَتِهِ *** عَصَفَتْ رِيحٌ بِهِ فَتَقَشَّعا

قُلْ لِمَنْ يَطْمَعُ فِي نَائِلِهِ *** قَدْ أَزَالَ اليَأْسُ ذَاكَ الطَّمَعا (1)

فالمعتمد لا يشكو الفقر إلا لأنه منعه العطاء ، و حجب عنه السائلين و جعله صفر اليدين :

أَصْبَحَتْ صِفْرًا يَدي مِمَّا تَجُودُ بِهِ** مَاأَعْجَبَ الحَادِثَ المَقْدُورفي رَجَب

ذُلٌّ وَ فَقْرٌ أَزَالا عِزَّةً وَ غِنًى ** نَعْمَى اللَّيَالي مِنَ البَلْوَى عَلَى كَثَب (2)

و يخاطب – في حسرة – الآملين في نفحاته ، الطامعين في عطائه أن الدهر كف يده ، فلم تعد قادرة على بذل أو جود ، فهلا جنبوه الحرج ؟ :

يَا آمِلِي العَادَاتِ مِنْ نَفَحَاتِنَا *** كُفُّوا فَإِنَّ الدَّهْرَ كَفَّ أَكُفَّنَا (3)

و يتذكر المعتمد كيف كان كريم اليد و النفس معا ، يجيب النداء متى ناداه الصريخ و متى سمع الحيعلة :

قَدْ كَانَ إنْ سُئِلَ النَّدَى يُجْزِل (4)
وإنْ نَادَى الصَّرِيخُ بِبَابِهِ ارْكَبْ يَرْكَب

1- الديوان :155
2- م ن : 190
3- م ن : 192
4- م ن : 154

و يقول في موضع آخر :

إذْ يَمِينِي لِلْبَذْلِ يَوْمَ العَطَايَا *** وَ لِقَبْضِ الأرْوَاحِ يَوْمَ الكِفَـاحِ (1)

و لكن هيهات ، فلم يعد بمقدوره إجابة الصريخ و لا عتق الرقاب :

وَ أنَا اليَوْمَ رَهْنُ أَسْرٍ وَ فَقْرٍ *** مُسْتَبَاحُ الحِمَى مَهِيضُ الجَنَـاحِ

لا أجُيبُ الصَّرِيخَ إنْ حَضَرَ النَّـا *** سُ وَ لاَ المُعْتِقِينَ يَوْمَ السَّمَاحِ (2)

و المعتمد ينوه في كل مرة بشجاعته و فروسيته :

وَ كُنَّا إذا حَاتَتْ لِحَرْبٍ فَرِيضَةٌ ** وَ نَادَتْ بِأَوْقَاتِ الصَّلاَةِ طُبُول

شَهِدْنَا فَكَبَّرنَا فَظَلَّتْ سُيُوفُنا ** تُصَلِّي بِهَامَاتِ العِدَى فَتُطِـيل

سُجُودٌ عَلَى إثْرِ الرُّكُوعِ مُتَابَع ** هُنَاكَ بِأَرْوَاحِ الكُمَاةِ تَسِـيل (3)

و شجاعة المعتمد ذائعة الصيت ، فكيف يدركها الأفول ؟ :

قَدْ ضَاقَ صَدْرُ المَعَالي إذْ نُعِيتَ لَهَا **وَ قِيلَ إنَّ عَلَيكَ القَيْدَ قَدْ ضَاقَا

أنَّى غُلِبْتَ وَ كُنْتَ الدَّهْرَ ذا غَلَـبٍ ** للغَالِبِينَ وَ للسَّبَّاقِ سَـبَّـاقَا (4)

و المعتمد يسترجع ذكرياته من كل ما يحيط به ، فلما اشتدت عليه القيود التي بدت كالثعبان ، لاحت في الأفق ذكريات القتال الجميلة عندما كان رمحه ثعبانا يفتك بالأعداء :

1- الديوان : 157
2- م ن : 157
3- م ن : 179- 180
4- م ن : 180

(1)
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى ** فغدا عليك القيد كالثعبان

الملك ، القصور و الليالي الملاح :

لم يتوقف المعتمد لحظة عن ذكر ملكه و قصوره و أيامه الزاهية ، فيقارن ذلك كله بما آل إليه ؛ فقد ضاع الملك و المال و الذهب ، و انقلبت الأيام عليه ، و أي منقلب ؟ :

و قَدِيمًا كَلِفَ المُلْك بِنَا * و رَأى مِنَّا شُمُوسًا فَعَشِيـــــق**

قَدْ مَضَى مِنَّا مُلُوكٌ شُهِرُوا * شُهْرَةَ الشَّمْسِ تَجَلَّت في الأُفُقْ**

(2)
نَحَنْ أَبْنَاءُ بنِي مَاءِ السَّمَاء * نَحْوَنَا تَطْمَعُ أَلْحَاظُ الحَـــدق**

كانوا ملوكا عشقهم الملك ، لكن قضى ملكهم ، و شموسا أنارت الدنيا بهم، لكن أفلت أنوارهم .

و لما ضاع الملك ضاع معه كل شيء ، فقصوره التي أبدع بناتها في تشييدها أصبحت أثرا بعد عين ، موحشة تبكي أصحابها ؛ و إذا كان الشعراء قديما يبكون الديار و يقفون على الأطلال ، فإن المعتمد عكس الآية ، فجعل قصوره هي التي تبكي فراقه :

بَكَى المُبَارَكُ في إثْرِ ابنِ عَبَّادِ **بَكَى عَلى إثْر غِزْلاَنٍ و آسَادِ

1- الديوان : 183
2- م ن : 147

بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لا غُشَّتْ كَوَاكِبُهَا ** بِمِثْلِ نوءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الغَـادِي

بَكَى الوَحِيدُ ، بَكَى الزَّاهِي وَ قُبَّتُهُ ** وَ النَّهْرُ وَ التَّاجُ كُلٌّ ذَلَّهُ بَادِي (1)

انظر إليه كيف يصور بكاء قصوره عليه و حنينها إليه ، و كيف بدت الذلة عليها بعد رحيله عنها .

و تلوح في الأفق ذكريات الليالي الملاح التي قضاها في باحة قصوره ، يستمتع بتغاريد طيوره ، و يتنسم الهواء العليل و حوله الأحبة و الخلان :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ** أَمَامِي وَ خَلْفِي رَوْضَةٌ وَ غَدِيرُ؟

بِمَنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مُورِثَةِ العُـلا ** يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْ تَرِنُّ طُيُـــور (2)

يتذكر الشاعر أيامه الجميلة وسط تلك الأجواء الطبيعية الساحرة " فالشاعر المغترب لا ينسى ذكرياته و ساعات لهوه التي قضاها بين أحضان الطبيعة (3)" .

لكن طبيعة اشبيلية غير طبيعة أغمات الصامتة الحزينة ، و هو لذلك يرجو عودة الأيام الخوالي ، و لا يرى في ذلك أمرا بعيد المنال إنما هو قريب بمشيئة الله :

تُرَاهُ عَسِيرًا أَوْ يَسِيرًا مَنَالُهُ *** أَلا كُلُّ مَا شَاءَ الإِلَهُ يَسِير (4)

1- الديوان : 161
2- م ن : 172
3- دراسات في أدب المغرب و الأندلس : فوزي سعد عيسى : 25
4- ديوان المعتمد : 172

أمل يعلل الشاعر به نفسه ، و تأبى الخطوب غير ذلك :

(1)
تُؤَمِّلُ لِلنَّفْسِ الشَّجِيَّةِ فَرْحَة *** وَ تَأْبَى الخُطُوبُ السُّودُ إلاّ تَمَادِيَا

كنت بالعيد مسرورا :

أتى العيد و لكن طعمه مر كالعلقم ، ذلك لأن عادة الناس في الأعياد إظهار الفرحة و التزين بأجمل الثياب ، لكن الأمر يختلف عند المعتمد ، فعيده لم يأت بجديد و لكن قلب عليه أوجاعه ، و زاده ألما على آلامه :

(2)
فِيمَا مَضَى كُنْتَ بالأعْيَادِ مَسْرُورا ** فَسَاءَكَ العِيدُ في أغْمَاتَ مَأْسُورا

و تزيد معاناة الشاعر حين يرى الأطفال مبتهجين بالعيد ، بينما بناته جائعات يغزلن للناس ، و في العيد الماضي فقط كن أميرات حولهن الخدم و الحشم ، ثم يصور كيف جئن إليه يلقين تحية العيد منكسرات ، لا يرفعن رؤوسهن :

تَرَى بَنَاتك في الأطْمَارِ جَائِعَةً ** يَغْزِلنَ لِلنَّاسِ ، مَا يَمْلكْنَ قِطْمِيرا

(3)
بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً ** أبْصَارُهُنَّ حَسِيرَات مَكَاسِـــيرا

و يتذكر يوم الطين ، يوم مشت اعتماد و بناتها على المسك و الكافور، فإذا بهن اليوم حافيات يمشين على طين أغمات :

(4)
يَطَأْنَ في الطِّينِ وَ الأقْدَامُ حَافِيَة ** كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وَ كَافُورا

1- الديوان : 184
2- م ن : 168
3- م ن : 169
4- م ن : 169

فكيف يرضى بالعيش ، و يتمنى طول العمر ، بعد هذا كله ؟

أليرى بناته ذليلات يخدمن بنات من كان بالأمس خادما له ، يمنع عنه زائريه و يركض ذات اليمين و ذات الشمال لينظم جيشا ، أو يقدم خدمة ؟ :

أَأَرْغَبُ أنْ أعِيشَ أرى بَنَاتِي ** عَوَارِي قَدْ أضَرَّ بِهَا الجَفَاء

خَوَادِم بِنْت مَنْ قَدْ كَانَ أَعْلَى ** مَرَاتِبه ـ إذْ أبْدُو ـ النِّدَاء

وَ طَرْد النَّاسِ بَيْنَ يَدَي مَمَرِّي ** وَ كَفِّهم إذَا غَصَّ الفِنَـاء

وَ رَكْض عَنْ يَمِين أوْ شِمَال ** لِنَظْمِ الجَيْشِ إنْ رُفِعَ اللِّـوَاء (1)

هكذا مزج المعتمد الماضي بالحاضر ، ليحقق الزمن المنتظر ، زمن الصيرورة أو الزمن البديل (2) ، هذا الانتظار هو مصدر توتر الشاعر، لأنه يدرك تماما أن لا طائل من ذلك ، فرجوع الماضي مستحيل ، و الرضا بالحاضر صعب لكنه ممكن ، و بين هذا و ذاك ظل المعتمد حائرا غير مصدق ، حتى تقطعت به الأسباب و واراه التراب .

---

*- نظم المعتمد هذه الأبيات عقب دعاء ابن زهر له بطول العمر .

1- الديوان : 176

2- ينظر : دراسات في الأدب الأندلسي : 131

2-ب-4- المعتمد و أبو فراس الحمداني :

إن الدارس لشعر كل من أبي فراس و المعتمد ، يلحظ شبها ما بين تجربتيهما ، و بخاصة في شعر الأسريات و لكن إلى أي مدى ؟

مما يشترك فيه الشاعران انحدارهما من أرومة تجمع بين الملك و الشعر و السيف فقد " كان ابن عباد .. كأبي فراس من سليلة حل الشعر في صدر كل واحد من أفرادها ، و كان كل واحد منهم سيد السيف و القلم . (1)"

و من غريب الصدف أن يقضي الحمداني في بلد الروم أربع سنوات من الأسر ، و ينظم خلالها زهاء خمس و أربعين قصيدة و مقطوعة صور فيها حالة أسره و نفسه المنكسرة و آلامه و جراحه و حنينه . (2)

و المعتمد كذلك قضى أربع سنوات في أغمات على اعتبار أنه نفي سنة 484 (3) هجرية، و توفي فيها سنة 488 ه و خلالها نظم زهاء أربعين مقطوعة (4) .

و لكن إذا اتفق للشاعرين مدة الأسر و حجم النظم و طبيعة البيئة ، فلا يعني هذا تشابه التجربتين تشابها تاما ، و لعل أول ما يختلف فيه الشاعران طبيعة السجن و السجان ، فأبو فراس أسره الروم و هم أبعد ما يكونون عنه ، على حين أسر المعتمد بيد ابن تاشفين و هو من بني جلدته ، فأي المعاناة أكبر ؟

1- الموجز في الأدب العربي و تاريخه : حنا الفاخوري : 224
2- ينظر : روميات أبي فراس الحمداني : فضيلة بن عيسى : 89- 90
3- ينظر : المعتمد بن عباد : نديم مرعشلي : 08
4- ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة : 2/ 119

لاشك أنها الثانية ، و يضاف إلى هذا أن الحمداني كان يؤمل العودة والرجوع إن عاجلا أو آجلا، إذ كان لا ينفك يبعث بتوسلاته إلى ابن عمه سيف الدولة يرجوه الخلاص و الفداء ، أما المعتمد فيئس من العودة ، و قطع كل أمل في الأوبة .

"(1)

و علاوة على هذا كله يعد المعتمد " أشد تركيزا شعريا من أبي فراس ، و أكثرا وقعا في النفوس و تأثيرا عليها ، فأبو فراس سجن لوحده و لم يقاسمه المأساة أهله، على حين أسر مع المعتمد خاصته، فرأى بناته ذليلات، و ماتت اعتماد قبله فجزع لفراقها ، ثم التحق بها تاركا أبناءه لمستقبل مجهول .

و بعد، فأي التجربتين أقسى ؟ و لم يكون أبو فراس الملك الذي ختم به الشعرو المعتمد أحق منه في ذلك ؟ و لم يقال الروميات ولا يقال الأغماتيات؟ (*)

2-ب-5-قبر الغريب :

لقد شعر المعتمد بدنو أجله ، فرثى نفسه لا على طريقة من ينسوا من حياتهم لمرض عضال أو أمل ضائع ، و إنما كان يرثي ملكه و يبكي دولته :

قَبْرَ الغَرِيب سَقَاكَ الرَّائِحُ الغَادِي ** حَقًّا ظَفَرت بأَشْلاَءِ ابنِ عَبَّادِ (2)

1- الموجز في تاريخ الأدب : 225

*- قال الصاحب بن عباد : بدىء الشعر بملك و ختم بملك؛ يعني امرأ القيس و أبا فراس – ينظر : يتيمة الدهر : الثعالبي : 1/ 57

2- ديوان المعتمد : 193

ثم يهنئ قبره على هذا الدفين الذي طالما امتاز :

(1)

بالحِلْم ، بالعِلْم بالنُّعْمى إذَا اتَّصَلَتبالخصْبِ إنْ جَدَبُوا بالرَّيّ للصَّادِي**

و يختم أبياته برجاء لم يطلبه و لكنه تمناه :

(2)

وَ لا تَزَالُ صَلَوَاتُ الله دَائِمَةً ** على دَفِينِكَ لا تُحْصَى بِتِعْدَاد

و صدقت الأيام المعتمد إذ ظل قبره مزارا للناس بين محب و مشفق و معتبر، (*)

و ممن زاره ابن الخطيب فتذكر و تحسر ثم أنشد :

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بِأَغْمَات ** رَأَيْتُ ذَلِكَ مِن أولى المُهِمَّات

(3)

لِمَ لا أَزُورُكَ يَا أَنْدى المُلُوكِ يَدًا ويَا ضِيَاء اللَّيَالِي المُدلهَمَـات

عاشت الأندلس منذ فتحها في فتن و حروب ، كما شهدت سقوط ملوك و ممالك لا تحصى ، و لكن نكبة المعتمد كانت الأقوى تأثيرا ، يقول احسان عباس : " قصة انهيار البطل الحامي للأدب و الشعر ، كانت أعمق أثرا من سواها "(4) ، " فلم يكتب التاريخ في الأندلس العربي صفحة زاهية قاتمة ، ومشرقة حزينة ، فيها كل مقومات المجد و السؤدد و الخلود ، و كل مظاهر

1- الديوان : 193

2- م ن : 194

*- زاره أيضا ابن عبد الصمد ، كما رثاه ابن اللبانة و ابن حمديس و غيرهم.

3- لسان الدين ابن الخطيب – حياته و تراثه : محمد عبد الله عنان : 66

4- تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف و المرابطين : 151

(1)"

الحزن و الذلة و الأسى كصفحة ابن عبـــاد .

و لا عجب فالمعتمد كان نجما فغاب ، و شمسا فأفلت ، بل لقد عقمت الأندلس فلم تنجب بعده رجلا في مثل شجاعته و كرمه و شاعريته .

1- القطوف اليانعة : عبد الله أنيس الطباع : 193

الفصل الثالث

متفرقات

شعرية

صحيح أن المعتمد نظم في مختلف الأغراض الشعرية ، و لكن ليس بالحجم نفسه ، فالمتتبع لشعره يسجل تفاوتا بين هذه الأغراض ، فإذا كنا نسجل إكثار الشاعر في غرض الغزل أيام سعوده ، و شعر الأسر أيام شقائه، فإننا بالمقابل نسجل نظما متفاوتا في الأغراض الشعرية الكبرى كالخمريات بست عشرة قطعة ، و المدح باثنتي عشرة قطعة ، و الوصف بسبع قطع ، و الفخر بخمس قطع ، والاعتذار بأربع قطع ، لهذا آثرنا أن يكون هذا الفصل خاصا بهذه الأغراض جميعها في شكل متفرقات .

1- الخمريات :

بلغ تعلق العرب بالخمر درجة كبيرة ، إذ وصفوها وصفا دقيقا، و جعلوها أنيسهم في حلهم و ترحالهم ، وفي حربهم و سلمهم بل لم تكن المجالس لتخلو منها فهي أفضل ما يقدم ، و أحسن ما يضيف به .

وكانت منزلة الخمر عند الشعراء أكبر و أجل ، فهم أحلوها المقام العالي، ولم تكد قصائدهم تخلو من ذكرها ووصفها ، بل إن هناك من أفرد قصائد كاملة في تمجيد الخمر و ذكر فضائلها و سائر ميزاتها .

وشعراء الجاهلية الذين نظموا في الخمريات يتفاوتون من حيث الكثرة و الجودة ، فهناك من كان يكتفي بذكرها عرضا إلى جانب أغراض أخرى و منها قول عنترة العبسي :

ألا إنَّهَا نِعْم الدَّواءِ لِشَارِب *** ألا فَاسْقِنيهَا قَبلَ مَا أَنْتَ تَخْرُج (1)

و منهم من كان يفتتح بها قصائده ليصل من خلالها إلى غرضه الذي بعثه على النظم ، و من هؤلاء عمرو بن كلثوم إذ قال :

ألا هُبّي بِصَحْنِك فَاصْبِحِينَا *** و لا تُبقِي خُمُورَ الأندَرِينَا

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الجَصّ فِيهَا *** إذا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينا (2)

و قد يسأل السائل، ما الباعث الذي جعل عمرو بن كلثوم يفتتح قصيدته بهذه المقدمة الخمرية و عادة العرب البكاء في أول القصائد؟ و السبب أن حماسة ابن كلثوم جعلته يعوض الوقوف على الأطلال بذكر الخمر و وصفها ، لأنه كان في صدد الفخر و الترهيب و الوعيد ، و الخمر أنسب في هذا الباب .

بيد أن الشاعر الجاهلي الذي شغلت الخمر في شعره حيزا واسعا، هو الأعشى حتى قيل فيه إنه " أشعر الجاهليين إذا طرب " (3).

فإذا كانت الخمر عند عنترة أفضل الدواء ، و الباعثة على الحماسة عند عمرو بن كلثوم ، فإنها السبب في إجادة الشعر عند الأعشى الذي عشق الخمر لدرجة بدا كلامه فيها شبيها بكلام الثمل إذ يقول :

1- ديوان عنترة : 111

2- ديوان عمرو بن كلثوم : 60

3- أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار بين الأعشى و الجاهليين : محمد محمد حسين : 15

وَ لَقَدْ شَرِبْتُ ثَمَانِيًا وَ ثَمَانِيا *** وَ ثَمَانَ عَشْرَةَ وَ اثْنَتَيْنِ وَ أَرْبَعَا
مِنْ قَهْوَةٍ بَاتَتْ بِفَارِسِ صَفْوَةٍ *** تَدَعُ الفَتَى مَلِكًا يَمِيلُ مُصرَّعَا (1)

و إذا كان هذا شأن الخمر عند العرب في الجاهلية ، فإن الإسلام حرمها تحريما مطلقا في قوله تعالى : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ و الأَنْصَابُ و الأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (2) .

ولم يحرم شربها فحسب بل حرم كل ما تعلق بها بما في ذلك التغني بذكرها ، بيد أن العربي الذي عشق الخمر عشقا قويا لم يستطع التخلص من عادته ، فإذا بمجالس الشراب و السمر تعود من جديد مع مطلع العصر الأموي ، وإذا بالشعراء يتغنون بها على عادة الأعشى الذي جاء بعده " شعراء تأثروا بشعره في الخمر نخص منهم بالذكر شاعرين هما الأخطل و أبو نواس (3)" .

و المتتبع لشعر الخمر في الأندلس لا يجد اختلافا كبيرا عما هو عليه في المشرق ، فمجالس اللهو و الشراب في قرطبة هي ذاتها في بغداد ، و إن كانت الأندلس بطبيعتها الغناء ، و تحرر ساكنيها تبعث أكثر على الشراب إذ كان " يتردد في شعرهم ذكر الكؤوس المترعة بالخمر تدور على الندامى والسامرين (4)" ، و إلى جانب هذا فقد تفننوا في وصفها و ذكر ألوانها و حالاتها :

1- أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار بين الجاهليين : 46
2- سورة المائدة – الآية 90-
3- أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار : 16
4- الشعر العربي في اسبانيا و صقلية 28

" و إذا نحن أردنا حلاوة اللفظ و أناقة المعنى في وصف الخمر استطعنا أن نورد نماذج كثيرة من ذلك قول ابن عمار : (1)"

أَدِرِ الزُّجَاجَةَ فالنَّسِيمُ قَدِ انْبَرى ** و النَّجْمُ قَد صَرَفَ العَنَان عَنِ السّرَى(2)

و قول ابن هانئ : (3)

وَ لَيْلٍ بتُّ أسْقَاهَا سُلَافا * مُعَتَّقَةَ كَلَوْنِ الجِلنّار**

و شعراء الأندلس كشعراء المشرق مزجوا في كثير من الأحيان ذكر الخمر بالطبيعة أو المرأة ، و أكثر ما كان يروقهم إقرانها بالغزل بالمذكر ، يقول مصطفى الشكعة : " كثيرا ما كان شعر الخمر مزاجا بين وصف مجلسها و أثرها في النفوس و غزل بالمذكر . من ذلك قول ابن عمار : (4) "

. وَ هَوَيْتُه يسْقي المُدَامَ كَأنَّه * قَمَرٌ يَدُورُ بِكَوْكَبٍ في مَجْلِس (5)**

و إذا كان هذا شأن شعراء الأندلس ، فكيف هو شأن المعتمد ؟

إن المتتبع لشعر المعتمد في الخمر يقف على رصيد شعري معتبر في هذا الباب ، و منه قوله :

دُرًّا بَعَثْتَ مُفَصَّلاً بِجُمَان * أوْ رَوْضَة مِسْكِيَّة الرَّيْحَان**

لا بَلْ عَرُوسًا قد زَفَفْتَ تَولّدت * ما بَيْن فِكْرِ نَاقِد و بنان (6)**

1- تاريخ الأدب العربي – الأدب في المغرب و الأندلس : عمر الفروخ : 403/4 .
2-شعر محمد بن عمار الأندلسي :65
3- ديوان ابن هانىء:174
4- الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه:53
5-الذخيرة:391:1/2
6- ديوان المعتمد:63

يصف المعتمد الخمر بأنها در و ريحان ، ثم يستدرك فيجعلها عروسا في أبهى حلة ، و هو يلبي دعوة الداعي إليها إذ بها يروح عن نفسه أحزانها :

(1)
سَمْعًا لأَمْرِكَ إِذْ دَعَوْتَ إلى الَّتِي *** تَدَعُ القُلُوبَ قَلِيلَةَ الأَحْزَانِ

و يصف الخمر في موضع آخر بأنها خليط من الذهب و الفضة :

(2)
لَوْ زُرْتَنَا لَرَأَيْتَ مَا لَمْ تَعْهَد *** نَوْب اللُّجَيْنْ خَلِيطَ نَوْبِ العَسْجَد

و المعتمد كذلك يجمع بين ذكر الخمر و الغزل بالمذكر :

أَمَّا الكُؤُوسُ فَقَدْ جَرَتْ مَا بَيْنَنَا *** بِيَدَيْ غَزَالٍ سَاحِرِ الأَجْفَانِ

(3)
خَنِثٍ يَسْقِينِي المُدَامَ بِطَرْفِهِ *** وَ بِكَفِّهِ وَ مَتَى أَشَأْ عَنَّانِي

و انظر إليه و هو يثني على الخمر في أنها سبب السلو ، و ذهاب العقول و تلك مزية لأن الهم لصيق بالعقل فإذا غاب الثاني ذهب الأول :

لا يَسْتَبِيكَ الهَمُّ نَفْسَكَ غُنْوَة *** وَ الكَأْسُ سَيْفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيل

(4)
بِالعَقْلِ تَزْدَحِمُ الهُمُوم عَلَى الحَشَا *** فَالعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عُقُول

و مجلس المعتمد مليء بالكؤوس و الأقداح حتى لو أراد أحدهم السباحة فيها لأمكنه ذلك :

وَ هَا هُوَ المَجْلِسُ المُعَدُّ لَكُمْ *** فَادْخُل إِلَيْهِ وَ لْيَدْخُل القَوْم

1- الديوان : 63
2- م ن : 74
3- م ن : 64
4- م ن : 66

إلى كُؤُوسٍ لَوْ شَاءَ شَارِبُهَا *** يَعُومُ فِيهَا لأَمْكَنَ العَـوْم (1)

و لكن المجلس لا يكتمل إلا بحضور الخلان و الأصحاب ، فها هو يدعو الأديب محمّدًا المصري محفزا إياه على تلبية الدعوة التي أعد لها جوا من الغناء و الأنس و كؤوس الراح التي تنسي الهوى و آلامه ، بل تنسي حتى الهواء الذي يتنفسه :

نَحْنُ في المَجْلِسِ الَّذِي يَهَبُ الـرَّا ** حَةَ وَ المَسْمَعَ الغنى وَ القِنَاء

نَتَعَاطى الَّتِي تُنْسِيكَ في اللَّـــذَ ** ةَ وَ الرِّقَّةِ الهَوَى وَ الهَـــوَاء

فَأْتِهِ تُلْفِ رَاحَةً وَ مُحَـــيًّا ** قَدْ أَعَدَّا لَكَ الحَيَا وَ الحَـــيَاء (2)

ثم انظر إليه و هو يصف الخمر التي سطع نورها وسط ظلام الليل الدامس ، و هو إذا شربها بدت له الأجواء غير الأجواء ؛ فالكواكب و النجوم و الثريا تبدو كأنها تتراقص من حوله في بهجة وسرور:

وَ لَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ يَسْطَعُ نُورُهَا ** وَ اللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلامَ رِدَاء

حَتَّى تَبَدَّى البَدْرُ في جَوْزَائِـهِ ** مَلِكًا تَنَاهَى بَهْجَةً وَ ضِـيَاء

وَ تَرَى الكَوَاكِبَ كَالمَوَاكِبِ حَـــوْلَهُ ** رَفَعَتْ ثُرَيَّاهَا عَلَيْهِ لِوَاء (3)

و المعتمد إذا ابتعـد عن أحبتـه ، لم يجد إلا الخمر ملاذا للتقليل من الهـم

1- الديوان : 67
2- م ن : 68
3- م ن : 69

والحزن و تنكر من تركهم وراءه :

اشْرَبِ الكَأْسَ في وِدَادِ وِدَادِكَ *** وَ تَأَنَّس بِذِكْرِهَا فِي انْفِرَادِك (1)

و الخمر لا يحلو شربها إلا إذا صاحبها غناء ، فكلاهما يعيد الأرواح إلى الأبدان ، و يبعثها على السرور :

غَلَبَ الكَرَى وَ دَنَتْ مَطَايَا الرَّاحِ *** وَ اشْتَقْنَ شَدْوَ حدَاتِهَا النّصاح

فَلِبْثْ نَشَاطَ سُؤْمِهَا وَ حَسِيرِها *** بِغِنَاءِ حَادِيهَا أَخي الإفْصَـــاح

لِيُقِيمَ ذَاكَ العُودَ مِنْ رَسْمِ السَّرَى *** وَ يَعُودَ في الأَجْسَامِ بِالأَرْوَاح

فَنَسِيرَ فِي طُرُقِ السُّرُورِ نَهَـتَدِي *** بِخُفَّيْهِن ، بِأَنْجُمِ الأقْـــدَاح (2)

هذا هو مذهب المعتمد في خمرياته التي يراها مسرة للنفس تارة، و تارة أخرى سلاحا يقضي على الهم و ينسي الآلام ، وهو أيضا يزاوج بين ذكر الخمر و ذكر الطبيعة و المرأة ؛ إذ لا يحلو شربها إلا في طبيعة غناء و أجواء ساحرة تزينها الغواني والقيان ، و هو في وصفه لها يحلها المقام الرفيع)فهي ذائب الورد ، و الذهب و الفضة و الجمان ، و هي النور الساطع والسيف القاطع ، بل إنها أشبه بعروس في أبهى حلتها ؛ وصف تفرد به المعتمد بين الشعراء الذين وصفوا الخمر بكل الأوصاف إلا أن تكون عروسا .

1- الديوان : 72

2- م ن : 70

2- المدح :

يقف المتتبع للشعر العربي على طغيان هذا الغرض على باقي الأغراض التي تعود في الأصل إليه ؛ فالرثاء هو مدح الميت و الفخر هو مدح النفس و القوم ، و الغزل هو مدح المرأة .. و هكذا .

و يتجه المدح اتجاهين: أما الأول فيقصد به التكسب ، و أما الثاني فيراد به إظهار الإعجاب بمزايا الممدوح و فضائله.

و مما يلاحظ أن الاتجاه الأول هو الغالب ، حيث وجد الشعراء فيه مطية للوصول إلى أغراضهم ، و التقرب من الحكام و الملوك ، لدرجة أصبح فيها لكل أمير أو ملك كوكبة من الشعراء يقفون بين يديه مادحين و ممجدين ، وقد يغالون في ذلك حتى تخال الممدوح نبيا مرسلا أو ملكا من السماء .

و الجدير بالذكر أن العرب لم تستسغ مدح الشاعر لغير أفراد قبيلته وأعيانها ، فالنابغة الذبياني حطه مدحه للنعمان بن المنذر و لم يرفعه أبدا في نظر قومه " (1) ، و مع ذلك وضعه ابن سلام الجمحي في الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية لجودة شعره حتى و إن كان لغير قومه " (2) .

1- ينظر : فن الشعر : إحسان عباس : 167- 168

2- ينظر : طبقات فحول الشعراء : 2/ 1005

و المدح في الأندلس لا يختلف كثيرا عما هو عليه في المشرق إلا أنه غلب عليه التكسب حتى أصبح حرفة يمتهنها الشعراء لمعرفتهم بشغف الملوك و الأمراء و الأعيان بهذا الجانب.

فما موقع المعتمد في ذلك ؟

الواقع أن المعتمد جمع بين الملك و الشعر ، فهو الملك الذي تتوافد عليه جموع الشعراء تمدحه و تثني عليه ، على أن الذي يهمنا هنا هو المعتمد المادح لا الممدوح .

إن المتتبع لمدائح المعتمد يجدها تتجه نحو شخص واحد هو والده المعتضد ، (*)
فما كان ليمدح إلا أباه ولي نعمته و صاحب الفضل عليه :

يا أيُّهَا المَلِكُ الذّي *** كَفَّاهُ بَخَّلَتَا السَّحَـــاب
لاَ زِلْتَ تَنْتَعِلُ النُّجُو *** م وَ خَدّ قِتْلِكَ في التُّرَاب (1)

انظر إليه و هو يمدح أباه بالكرم الذي أخجل السحاب ، ثم ينصبه في أعلى المراتب فيجعله ينتعل النجوم ، أما أعداؤه فمكانهم تحت قدمي المعتضد .

و كرم المعتضد لا يخجل السحاب فحسب ، بل يخجل الناس جميعا فيصير الحر منهم عبدا :

*- يقول محقق الديوان رضا السويسي : " و لم نجده مدح غير أبيه إلا ما كان من قبيل الإطراء تجاه وزيره الشيخ ابن زيدون" – ديوان المعتمد : 15

1- الديوان : 87

(1)
يَا مُسْتَرِقًّا بِنُعْمَـــاه *** كُلَّ حُرٍّ سَـــرِي

و إذا كان من عادة الشعراء أن يجعلوا من الممدوح بحرا في العطاء فالمعتمد قد فعل الشيء نفسه ، إلا أنه أضاف أمرا آخر إذ نفى أن يكون في بحر المعتضد جزر و لكنه مد أبدا :

(2)
عَهِدْنَا البِحَارَ لِزَجْرٍ وَ مَدٍّ *** وَ تَأْبَى بِحَارُ أَيَادِيكَ جَزْرا

و يرى المعتمد أنه مهما أثنى على كرم المعتضد فلن يوفيه حقه ، لذلك جعله شغله الشاغل:

يَا مَلِكًا قَدْ أَصْبَحَت كَفُّـــــه *** سَاخِرَةً بِالعَارِضِ الهَاطِـــل

(3)
وَ إِنْ أَكُن قَصَّرْتُ عَنْ وَصْفِهَا *** فَحُسْنُهَا عَنْ وَصْفِهَا شَاغِلي

و المعتضد عادل في رعيته ، ولكنه ظلام لماله إذ ينفقه بلا حساب ، بل قد يعطيه لمن لا يستحقه :

(4)
وَ عَادِلا فِي النَّاسِ لَكِنَّـــه *** أَصْبَحَ لِلأَمْوَالِ ظَـــلَّامَا

و هو إلى جانب كرمه ، شديد لا يغمد سيفه :

1- الديوان : 88
2- م ن : 90
3- م ن : 91
4- م ن : 92

(1)
قَرَنْتَ في كَفّكَ بَحْرَ النَّدَى *** بِصَارِمٍ أَسْكَنْتَهُ الهَـامَا

و يعبر عن المعنى نفسه فيقول :

(2)
فالمَوْتُ وَ العَيْشُ بِيُمْنَاكَ قَدْ *** صَرّفْتَ أَسْيَافًا وَ أَقْلاَمـا

و المعتمد بعد أن أسبغ على المعتضد صفات الكرم و الجود و البأس ، انتقل ليسبغ عليه صفات الحسن و الجمال إذ تخجل الشمس من بهائه :

(3)
الشَّمْسُ تَخْجَلُ مِنْ جَمَالِكْ *** فَتَغِيبُ مُسْرِعَةً لِتَنْلِكْ

والبدر لا يطلع مكتملا بل ناقصا يتممه جمال المعتضد :

(4)
وَ البَدْرُ يَطْلُع نَاقِصًا *** حَتَّى يُتَمَّمَ مِنْ كَمَالِك

و مما يلاحظ جليا أن المعتمد عمد إلى جعل مقام أبيه مقام النجوم و الكواكب (*) لرفعتها و تألقها أكثر من أي شيء آخر .

و المعتضد مثلما جمع بين الكرم و شدة البأس ، جمع إلى ذلك كله الحسن و الجمال الذي تهيم به الحسان :

1- الديوان : 92
2- م ن : 92
3- م ن : 94
4- م ن : 94
*- من الشعراء الذين سبقوا إلى ذلك النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر حين جعله شمسا تبز الملوك جميعا إذا طلعت – ينظر : النابغة الذبياني : عمر الدسوقي : 230

لله دَرُّ أبي الصّنان *** مِنْ فَارِسٍ شَهْمِ الجَـــنَان

تَخْشَاهُ أَسَادُ الرِّجَا *** ل كَمَا تَهِيمُ بِهِ القِيَـــان

فَبِبَأْسِهِ يُشْقِي العِدَا *** وَ بِحُسْنِهِ يسْبِي الحِسَـــان (1)

هكذا ذهب المعتمد في مدح أبيه مذهب السابقين ، فالممدوح عنده كريم يسابق كرمه السحاب ، و هو شجاع تهابه أسد الرجال ، أما حسنه و جماله فتخجل منه الشمس و تهيم به الحسان .

3- الوصف :

بلغ الوصف في الشعر العربي شأوا كبيرا ، بل تكاد كل الأغراض الشعرية تنضوي تحته ، و قد أكثر الشعراء فيه و أجادوا . "(2)

و الوصف غالبا ما يتجه نحو الطبيعة التي " أودعها الشعراء عصارة قلوبهم ففيها يجد الشاعر متسعا للتعبير عن خوالج نفسه و مكنوناتها ، كما يسقط عليها همومه و يلتمس فيها التسلية .

و يأتي في مقدمة وصافي الطبيعة الشاعر الجاهلي امرؤ القيس ، الـذي أشاد القدماء به لأنه سبق إلى أشياء ابتدعها ، و استحسنها العرب كقوله: (3)

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا *** كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَـل

1- ديوان المعتمد : 94

2- تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية و الإسلام : أحمد فلاق عروات : 31

3- شرح المعلقات السبع : 37

و استمر الشعراء – عبر العصور- ينظمون في الوصف ، فيصفون كل ما تقع عليه حواسهم أو يخطر ببالهم ، و قد عرف هذا الفن تطورا ساير التطور الحضاري الذي شهدته الحياة العربية ، فانتقل الشاعر من وصف الناقة و الصحراء إلى وصف العمران و الحدائق و المباني فظهر الوصف الصناعي إلى جانب الوصف الطبيعي ، و لعل أشهر هؤلاء الشعراء في العصر العباسي : أبو تمام و البحتري صاحب السينية التي أبدع فيها ، ومنها قوله : (1)

وَ كَأَنَّ الإيوَان مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ ** ـعَة جَوْب في جَنْب أَرْعَنَ جَلْس

أما الوصف في الأندلس فقد احتل مكانا واسعا حتى طغى على باقي الأغراض ، فلا نكاد نجد شاعرا إلا و نظم في الوصف فأكثر ، و يبدو أن الأندلسيين طرقوا هذا الباب أولا متأثرين بالمشرق ، ثم تغير الأمر فهم" (2)" بدأوا بإثبات المماثلة و المجاراة إلى تحقيق التفوق و المباهاة ، إذ وجدوا في الأندلس طبيعة غير التي نشدوها في المشرق ، فهي تختلف عن الثانية في الموقع الجغرافي الذي تتربع عليه ، و المياه التي تحيط بها كطوق جميل، " و لئن وصف المشرقي الماء فإن الأندلسي وصف منظرا آخر له علاقة به ذلك المنظر هو منظر قوس قزح الذي يربط أطراف السماء بعضها ببعض

1- ديوان البحتري : 1/ 193

2- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : محمد رضوان الداية : 44

بألوانه الزاهية .. قال أبو الفضل :

تَرَى قُزَحًا في الجَوّ يَفْتَحُ قَوْسَهُ*** مُكِبًّا عَلَى قُطْنٍ مِن الثَّلْجِ ينزف (*) (1)

و يضاف إلى الاختلاف الجغرافي الاختلاف في التكوين البشري ، فالأندلس كانت مزيجا من أجناس عدة يأتي في مقدمتها الاسبان ، يقول جرجي زيدان :

" أجاد شعراء الأندلس الوصف لمخالطتهم الافرنج ، و يضاف إلى هذه العوامل التي ساهمت في تميز الوصف الأندلسي " حياة اللهو التي كان يمارسها الشعراء ممثلة في مجالس الأنس و الطرب (وسط) الطبيعة التي كانت عنصرا أساسيا فيه . (**)(2)"

هذا ، و يخلص الأستاذ عبد الله أنيس إلى أن " شعر الطبيعة في الأندلس يصور لنا تعلق الشعراء ببيئتهم و تفضيلها على شتات الأرض جميعا بعد أن كان خيالهم متعلقا بالمشرق العربي ، و يصدق هذا قول ابن خفاجة حين جعل الجنة في الأندلس دون سواها : (4)"

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لله دَرُّكُم ** مَاءٌ وَ ظِلٌّ وَ أَنْهَارٌ و أَشْجَار

---

*- من مظاهر التحرر لشعر الطبيعة في الأندلس الفتنة بالبحر و التفنن في أوصاف المياه – ينظر : الأدب الأندلسي التطور و التجديد : عبد المنعم خفاجي : 337

1- حول الأدب الأندلسي : قيصر مصطفى : 66- 67

2- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان – 2/ 241

**- هذا حكم عام فجرجي زيدان أسقط ما حدث في المشرق من تأثر العرب بالفرس على الأندلسيين ، و الواقع أن الافرنج هم من تأثر بهم .

3- الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق : 291 – 292

4- القطوف اليانعة : 304

مَا جَنَّةُ الخُلْدِ إلَّا في دِيَارِكُم ** وَ هَذِهِ كُنْتُ لَوْ خُيِّرتُ أخْتَار (1)

و ابن خفاجة من الشعراء الأندلسيين الذين أبدعوا في باب الوصف لاسيما في قصيدة الجبل :

وَ أرْعَن طَمَّاح الذُّوابَةِ بَاذِخ ** يُطَاوِلُ أعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِب

يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيح عَنْ كُلِّ وجْهَة ** وَ يَزْحَمُ لَيْلاً شُهبَه بالمَنَاكِب (2)

هذه القصيدة التي تعد من عيون الشعر العربي في الوصف تركت " أثرا كبيرا في شعراء العصر فحذا حذوه كثير من الشعراء . (3)"

و للمعتمد نصيب في الوصف من ذلك قوله :

. وَ لَرُبَّمَا سَلَّت لَنَا مِنْ مَائِها ** سَيْفًا وَ كَانَ عَنِ النَّوَاظِرِ مُغْمَدا

طَبَعَتْه لُجِّيًا فَذَابَتْ صَفْحَةٌ ** مِنْهُ وَ لَوْ جَمَدَت لَكَانَ مُهَنَّـــدا (4)

يقف الشاعر أمام هذا المنظر المائي المذهل معجبا متأملا ، فيخيل إليه أن سيفا سل منه ، و أن صفحة الماء هي أشبه بالمهند لو جمدت .

و يقول في المعنى نفسه :

1- ديوان ابن خفاجة : 364
2- م ن : 216
3- دراسات في أدب المغرب و الأندلس : فوزي سعد عيسى : 24
4- ديوان المعتمد : 76

(1) (*)

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَد *** أيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَد

و المعتمد مثلما وصف الطبيعة الحية ، وصف أيضا الطبيعة المصنوعة ، فمن لمعان الماء إلى بريق الشمعة :

(2)

وَ شَمْعَةٌ تَنْفي ظَلَام الدُّجى ** نَفْي يَدَي العُدْمِ مِنَ النَّاس

انظر إليه كيف جعل هذه الشمعة الصغيرة لا تقلل من الظلام فحسب بل تقضي عليه كلية ، ثم يتعجب من أمرها إذ إن حياتها في قطع رأسها :

(3)

قَدْ جَعَلَ الرَّحْمَن مِنْ لُطْفِهِ ** حَيَاتَهَا في القَطْعِ للرَّأْسِ

ثم يصور أجواء تلك الجلسة الهادئة مع الشمعة و الكأس :

(4)

سَاهَرْتُهَا وَالكَأْسُ سَعَى بِهَا ** مَنْ رِيقُهُ أشْهَى مِن الكَأْس

و امتزج الكل بالكل؛ فضياء الشمعة من ضياء الكأس ، و حرها من حر أنفاس الشاعر :

(5)

ضِيَاؤُهَا لاشَكَّ مِنْ وَجْهِهِ ** وَ حَرُّهَا مِنْ حَرِّ أنْفَاسِي

هذا و قد وصف المعتمد شيئا من الترف الذي كان يعيش فيه ، " فأفكاره

---

*- أجازت اعتماد المعتمد في شطر البيت الثاني حين عجز ابن عمار عن ذلك .

1- الديوان : 76

2- م ن : 77

3- م ن : 77

4- م ن : 77

5- م ن : 77

و معانيه و تشبيهاته إنما يستوحيها من محيطه الباذخ ، فالسندس و الزمرد و الجوهر موارد يستلهم منها الصور و الأفكار ، من ذلك وصفه لمجن :

مِجَنٌّ حَكَى صَانِعُوهُ السَّمَاء ** لتقْصُر عَنْه طِوَال الرِّمَاح

وَ صَاغُوا مِثَالَ الثُّرَيَّا عَلَيْه ** كَوَاكِب تَقْضِي لَهُ بالنَّجَاح (2)

صور الشاعر مدى تفنن الصناع في صنع هذا المجن لدرجة بدا فيها كالسماء لا تبلغه أطول الرماح ، و لا تكتمل الصورة إلا إذا زين هذه السماء كواكب و نجوم، وهو ما فعله الشاعر إذ صور لنا ذلك في قوله :

وَ تَزْدَان أَطْوَاقُهُ بالنُّجُوم ** كَمَا لَبِسَ الأفق ثَوْبَ الصَّبَاح (3)

ومما يلاحظ جليا أن المعتمد يكثر في وصفه من ذكر النجوم و الكواكب ، و يرجع الأستاذ عبد الله حمادي السبب في ذلك إلى " الروح الملوكية التي تختلج داخل كيانه فجعلته مسكونا بالتعبير عن رفعة جلاله ، و عظيم سلطانه (4)" فكانت الكواكب و الأقمار هي العاكسة لدرجة الرفعة و البريق .

و الواقع أن المتتبع لشعر المعتمد يقف على احتفائه بذكر الكواكب و النجوم ليس في غرض الوصف فحسب، و لكن في كافة الأغراض الأخرى بشكل لافت و مثير .

1- ينظر : اشبيلية في القرن الخامس الهجري : صلاح خالص : 139

2- ديوان المعتمد : 79

3- م ن : 79

4- أندلسيات غرناطة و الشعر : 27

4- الفخر :

شغل الفخر حيزا ا كبيرا في ديوان الشعر العربي ، و لعل السبب في ذلك يعود إلى تميز الفرد العربي " بالأنفة الطبيعية لذلك كثر شعر الفخر على لسانه على امتداد العصور (1)".

و للفخر بواعث نفسية هي التي تدفع بالشاعر إلى التغني بفضائله و فضائل قومه " ليرسم صورة عن النفس فيخافها الأعداء (2)".

و المتتبع للشعر الجاهلي يجد الشعراء يكثرون النظم في هذا الباب لانتشار نظام القبيلة آنذاك ، إذ كان كل شاعر يعمد إلى التغني بفضائل قومه " و كان يحظى بمكانة كبيرة ما دام يتكلم بلسان قبيلته فإذا انشغل عنها بنفسه لم يعد له ذاك المقام الرفيع؛ كما كان شأن عنترة الذي شغل في شعره بنفسه عن قبيلته ، و شغل بقضيته الشخصية أكثر مما شغل بقضايا القبيلة ومصالحها (3)"، فعنترة صوت الفرد بخلاف عمرو بن كلثوم الذي كان صوت القبيلة يتردد صداها في كل أشعاره ، هو القائل :

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينَا * فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا** (4)

و بعد تفكك النظام القبلي ، أصبح للشاعر متسع للتعبير عن نفسه و الفخر

1- المبدعون في الشعر : سراج الدين محمد : 1/ قسم الفخر : 06
2- م ن : 05
3- ينظر : عنترة بن شداد : فوزي محمد أمين : 172
4- ديوان عمرو بن كلثوم : 62

بها دون قيود ، و قد وجد كل شاعر ما يفتخر به كالنسب و الفروسية و الكرم و الشاعرية ، فإذا لم يجد شيئا من ذلك فخر بنفسه لمجرد الفخر لأنه يرى نفسه أفضل الناس جميعا .

و من الشعراء الذين تغنوا بشعرهم و سيفهم حسان بن ثابت :

لِسَاني وَ سَيْفِي صَارِمَانِ كِلَاهُمَا *** وَ يَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي (1)

و ممن تغنى بقومه و أسلافه الفرزدق كما في قوله :

لَنَا العِزَّةُ الغُلْبَاء وَ العَدَدُ الذي ** عَلَيْهِ إذَا عُدَّ الحَصَى يتحَلَّـف (2)

و مثل ذلك قول أبي فراس الحمداني :

وَ فَرْعِي فَرْعُكَ السَّامِي المُعَلَّى ** وَ أَصْلِي أَصْلُكَ الزَّاكِي وَ حَسْبُ (3)

و إذا كان الفرزدق قد جعل العزة لقومه ، و الحمداني الرفعة في أصله ، فإن المتنبي ينفي أن يكون أجداده هم من أسبغوا عليه الشرف و المجد و لكنه بلغ ذلك كله بنفسه :

لا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي ** وَ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودي (4) (*)

و يذهب المتنبي في الفخر مذهبا بعيدا ؛ فهو الشاعر الذي يسمع شعره الأصم

1- ديوان حسان بن ثابت : 25
2- ديوان الفرزدق : 82
3- ديوان أبي فراس : 31
4- ديوان المتنبي : 21
*- هذا مثل قول عنترة : فأما القائلون هزبر قوم ** فذاك الفخر لا شرف الجدود

و يبصره الأعمى ، و هو الثريا التي لا يبلغها أحد،و أكثر من ذلك كله هو أخير الناس جميعا :

(1)

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ** بِأَنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَم

تلك قمة الفخر و قمة التعالي التي جعلته يشترط على سيف الدولة أن لا ينشده (2)
إلا جالسا ، و أن لا يقبل الأرض بين يديه كما يفعل كل الشعراء .

و مثل المتنبي أبو العلاء المعري الذي يرى نفسه فريد عصره :

(3)

وَ إنّي وَ إنْ كُنْتُ الأخِيرَ زَمَانه ** لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأوائِل

وتألق في الأندلس المنصور بن أبي عامر الذي أنشد أشعارا في الفخر ، و حق له ذلك فهو الذي لم يهزم في معركة خاضها :

رَمَيْتُ نَفْسِي هَوْلَ كُلِّ كَرِيهَةٍ ** وَ خَاطَرْتُ وَ الحُرُّ الكَرِيمُ مُخَاطِر

(4)

وَ إنّي لَزَجّاء الجُيُوشِ إلى الوَغَى ** أسُودٌ تُلاقِيهَا أسُودٌ قَوَابِر

أما الفخر عند المعتمد فلا يختلف كثيرا عن سابقيه ؛ فهو يفخر بشجاعته و بسالته التي أوقعت قرطبة في يده ، وقد استعصت على أولي البأس و الشدة

مَنْ لِلْمُلُوكِ بِشَأْوِ الأصْيَدِ البَطَلِ ** هَيْهَاتَ جَاءَتْكُمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَل

1- ديوان المتنبي : 332
2- ينظر : أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : أنيس المقدسي : 339
3- سقط الزند : المعري : 193
4- مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس : الفتح بن خاقان : 389

خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الحَسْنَاء إذ مَنَعَت ** مَنْ جَاءَ يَخْطُبُها بالبِيضِ و الأَسَل

كَمْ غَدَت عَاطِلاً حتّى عَرَضْتُ لَهَا ** فَأَصْبَحَتْ في سُرى الحُليّ و الحُلَل (1)

تغنى الشاعر بظفره بقرطبة زهراء الأندلس التي ضمها إلى جواهره الثمينة ، ثم ها هو يصور كيف أن فوزه بهذه الدرة كان عرسا كبيرا على حين تولى الملوك خائفين من بطشه :

عِرْسُ المُلُوكِ لَنَا في قَصْرِهَا عُرس ** كُلُّ المُلُوكِ بِه في مَأْتَمِ الوَجَل (2)

ثم يحذر الجميع من هجومه المرتقب :

فَرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ ـ لا أَبَا لَكُم ـ ** هُجُوم لَيْثٍ بِدِرْعِ البَأْسِ مُشْتَمِل (3)

و يفخر الشاعر بعفوه و سماحته التي ،لا شك، تطمع الطامعين :

وَ كُلُّ امْرِئ يَجْنِي عَلَيَّ جَرِيمَـة ** أُجَازِيهِ عَلَى الذَّنْبِ بالصَّفْـح (4)

و يتغنى بكرمه الذي هو أحب إليه من الظفر بالحاجة و السؤال :

الجُودُ أَحْلَى على قَلْبِي مِنَ الظَّفَر ** وَ مِنْ مَنَالِ قصيّ السُّؤَالِ و الوَطَرِ (5)

و هو يحن إلى العطاء حين يعدم الواقفين على بابه حنين الأرض الجدباء إلى

1- الديوان : 105
2- م ن : 106
3- م ن : 106
4- م ن : 107
5- م ن : 107

المطر حين تفقده :

(1)
وَقَدْ حَننتُ إلى مَا اعْتَدْتُ مِنَ الكَرَم**حَنِينَ أَرْضٍ إلى مُسْتَأخرِ المَطَر

و المعتمد إذا مرت عليه أيام و لم يجد بماله ، انتهى عن الشرب و الأنس

غضبا :

وَ قَدْ تَنَاهَت يَدي عَن كَأْسِهَا غَضَبًا ** وَ مَجَّت الأُذن أيْضًا نَغْمَةَ الوَتَر
(2)
حَتَّى أَملكَ هَذِي مَا تَجُودُ بِهِ** وَ أسَعَ الحَدَّ بِالأخْرَى عَلَى الأَثَـــر

و عفو المعتمد له حدود فمن تجاوزه جنى على نفسه :

يَا مَنْ تَعرَّضَ لي يُرِيدُ مسَاءَتِي ** لا تَعْرِضن فَقَدْ نُصِحْتَ لِمَنْدَم
(3)
مَنْ غَرَّهُ مِنّي خَلائِق سَهْلَة ** فالسَّمُّ تَحْتَ لِيَان مَسِّ الأرْقَـــم

إلى هنا نجد المعتمد شجاعا تهابه أسد الرجال ، و جوادًا يهوى العطاء و حليما يعفو عن المسيئين إليه، و ما لاحظناه عدم التفات الشاعر إلى التغني بشاعريته و نسبه ، على غرار أكثر الشعراء و لكننا لمسنا فخرا و شمما
(*)
بالنسب ، و حماسة و فروسية بارزة في أسرياته ، و نستطيع القول إن فخره الأول كان لتخويف أعدائه لذلك غلب عليه الفتور و المبالغة أما الثاني فكان لتعزية النفس و هو ما جعله يشع حرارة ، حرارة الأسر و المعاناة .

1- الديوان : 107
2- م ن : 108
3- م ن : 108
*- الشاعر المفتخر يعرض إلى ذكر أيامه الحربية .. أو يفتخر بأيام آبائه و أجداده – شعر الحرب في أدب العرب : زكي المحاسني : 307

5- الاعتذار:

يعد الاعتذار في الشعر العربي غرضا من الأغراض الشعرية القليلة الحضور ، و لعل السبب راجع إلى أنفة العربي الذي يأبى تقديم الاعتذار لما في ذلك من استنقاص له؛ فهو يأبى الخضوع و الانكسار لذلك تحاشاه الكثير من الشعراء ، و مع هذا فقد برز شاعر كبير أكثر من اعتذاراته للنعمان ابن المنذر حتى غلب على شعره ونسب إليه: هو النابغة الذبياني .

و المعتمد في هذا الباب لم يعتذر إلا لمن رآه أهلا لذلك ، إنه أبوه المعتضد:

مَوْلاَي أَشْكُو إِلَيْكَ دَاء ** أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ قَرِيـــــحا

سُخْطُك قَدْ زَانَنِي سِقَاما ** فَابْعث إِلَيَّ الرِّضَى مَسِيحا (1)

انظر إليه و هو يخاطب المعتضد بنبرة كلها ذلة و مسكنة ، مبينا أن داءه من سخط والده ، متوسلا إياه العفو و الصفح .

و يقول في موضع آخر :

تَرَفَّقْ بِعَبْدٍ وِدُّه لَكَ شِيمَة ** إِذَا كَانَ وِدُّ مَنْ سِوَاهُ تَصَنُّعا (2)

يلتمس الشاعر العفو ، منوها بوده الذي لا تشوبه شائبة بل هي سمة متأصلة فيه، بخلاف من يظهرون المودة تصنعا و رياء .

1- الديوان : 96

2- م ن : 97

و الشاعر يعاهد المعتضد بأن يكون ليثا شجاعا إذا ما من عليه بالعفو :

(1)
أَقِلْنِي تَجِدْ عَبْدًا شَكُورًا وَ صَارِمًا ** يَحز من الأعْدَاء لَيْثًا و أخْدَعا

و المعتمد لا ينفك يسبغ على حاله ألوان الحزن و الكآبة ما دام لم ينل الصفح:

(2)
عَلَتنِي مِنَ السّخْطِ الأليمِ سَحَابَة ** فَأَغْربها ريح الرِّضَا كَيْ تَقَشَّعَا

و حدث أن أخفق المعتمد أمام باديس الغرناطي ، فغضب المعتضد لذلك غضبا شديدا لولا أن أطفأت نار غضبه أشعار المعتمد التي التمس فيها الأعذار بكل الأساليب ، مضمنا إياها بين الحين و الآخر مدحا له و ثناء عليه

مَنْ مِثْلُ قَوْمِكَ وَ المَلك الهُمَام أبو ** عَمْرو – أَبُوك- لَهُ مَجْدٌ و مُفْتَخَر

(3)
سَمَيْدَع يَهَبُ الآلاَفَ مُقْتَـــدِرًا ** و يَسْتَقِلُّ عَطَايَاهُ وَ يَحْتَقِـــــر

و بعد أن فرغ من المدح انتقل ليصور حاله التي يرثى لها :

فَالنَّفْسُ جَازِعَةٌ وَ العَيْنُ دَامِعَةٌ ** و الصَّوْتُ مُرْتَفِعٌ و السِّرُّ مُنْتَشِر

(4)
وَ زَادَ هَمِّي مَا بالْجِسْمِ مِنْ سَقَمٍ ** و شِبْتُ رَأْسًا وَ لَمْ يَبْلُغْنِي الكِبر

فالنفس جزعة و العين دامعة ، و الهم طويل و الجسم سقيم، و الشيب قد علاه في عز الشباب ، إنها حال المغضوب عليه في أقسى اللحظات إلى أن ينعم بالعفو و الصفح .

1- الديوان : 97
2- م ن : 97
3- م ن : 100
4- م ن : 101

ثم إن غضب المعتضد يحجب عن المعتمد متعة الحياة ، فلا كأس تروقه و لا وتر يطربه:

مَوْلاَيَ دَعْوَةُ مَمْلُوكٍ بِهِ ظَمَأ ** بَرْح و في رَاحَتَيْكَ السَّلْسَلُ الخَضر

لَمْ أُوتَ مِنْ زَمَنِي شَيْئَاً أُسَرُّ بِهِ ** فَلَسْتُ أَعْهَدُ مَا كَأْسٌ وَ لاَ وَتَر (1)

و رضا المعتضد أفضل ما يدخره المعتمد لتقلبات الأيام و صروف الدهر :

رِضَاكَ رَاحَةُ نَفْسِي لا فُجِعْتُ بِهِ ** فَهُوَ العَتَادُ الَّذِي للدَّهْرِ أَدَّخِر (2)

هذا هو المعتمد، في فخره يفخر بما أحبته العرب من شجاعة و كرم وصفح ، و في اعتذاره و مدحه ، يأبى أن يخضع أو يذل إلا لأبيه ، أما في الوصف فهو الشاعر الرقيق الذي يحركه الجمال و تأخذ الخمر منه كل مأخذ ، و شعره على قلته في هذا المجال عذب مؤثر .

1- ديوان المعتمد : 102.
2- م ن : 103.

الفصل الرابع

السمات الفنية

ليس من شك في أن الفن هو الفاصل بين الأدب و سائر العلوم ، فالفن و الأدب وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما .

و الأديب فنان بطبعه ؛ يتفنن في التعبير عن أبسط الأمور التي قد تبدو للعوام في غاية التفاهة ، و لكنها عنده شيء عظيم ؛ فهو يندفع للتعبير عن المشاعر التي تضغط عليه ضغطا شديدا لنقل أحاسيسه للآخرين ، فيستثير طاقة الخيال و الإبداع ليخرج عمله الأدبي في حلة تسر الناظرين .

و الإبداع الأدبي قدرة عجيبة لا يتأتاها جميع الناس ، حتى إن الأقدمين ربطوها بالسحر و الشياطين لقوة تأثيرها في السامعين ، و له ضروب عدة سنحاول ملامسة بعضها .

1- المستوى التناصي :

اختلف النقاد قديما و حديثا في إعطاء مفهوم دقيق لظاهرة التناص : أ هي من قبيل توارد الأفكار؟ أم لأن هذه الأفكار و الأساليب التعبيرية إنسانية عالمية ؟ أم أن أحد المبدعين اطلع على نتاج الآخر و تأثر به دون أن يشعر ؟ و نتيجة لهذه التساؤلات تباينت التسميات ؛ من السرقة الأدبية إلى الأدب المقارن إلى التناص ، و لكنهم خلصوا جميعا إلى أنه " ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط و التقنين ، إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة

(1)"
المتلقي و سعة معرفته و قدرته على الترجيح .

و على الرغم من أن التناص أصبح ظاهرة لها حضورها في الآداب العالمية قاطبة ، إلا أنه لا يزال يحسب على الأديب أو الشاعر مغمزة ونقيصة؛ فما الدافع إلى الإتيان بمعاني الآخرين إذا كان هناك متسع من الحرية في العملية التعبيرية ؟

و الحديث هاهنا يجرنا إلى ما كان حاصلا في الأندلس في أيامها الأولى من تقليد لدرجة لا يذكر فيها الأدب الأندلسي إلا على أساس من التبعية
(2)
المطلقة للمشرق .

و لكن ثلة من الغيورين على أدبهم قامت لترد مزاعم هؤلاء ، و منهم ابن بسام الذي هاله ما فعله بعض الأندلسيين من اتباع المشارقة إذ قال " لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام و العراق ذباب لجثوا على هذا صنما
(3)"
أو تلوا تلك كتابا محكما ، ومن هنا كان كتابه الموسوم : " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " سجلا حافلا بآداب الأندلسيين و فنونهم .

والواقع أن ما كان حاصلا في الأندلس ليس تقليدا أعمى للمشرق و لا

1- تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص : محمد مفتاح : 131
2- ينظر : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : محمد محي الدين : 416
3- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام – 1/ 1 : 12

نسخا لآدابه ، و لكنه في كثير من الأحيان تناص، و إذا أوخذ الأندلسيون على ذلك فأولى أن يؤاخذ من كانوا قبلهم ، و قد كان الشاعر فيهم ينسخ شعر غيره نسخا ، فيأخذ منه اللفظ و المعنى بتمامهما كما في قول طرفة بن العبد :

(1)
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهم * يَقُولُون لاَتَهْلَك أسًى و تَجَلَّـد**

و هو منسوخ من قول امرىء القيس :

(2)
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهم * يَقُولُونَ لاَ تَهْلَكْ أَسًى وَ تَجَمَّـل**

و المتتبع لشعر المعتمد يجده يلتقي في معان كثيرة مع شعراء من المشرق و الأندلس بدرجات متفاوتة . (*)

المعتمد و الخنساء :

لا تذكر الخنساء إلا و يذكر بكاؤها السديمي على صخر ، و المعتمد اتفق معها في أحد المعاني التي بكى فيها ولديه الراضي و المأمون ، فأما الخنساء فقالت :

(3)
يَا عَيْنُ مَالَكِ لا تَنْسَكِبِين انْسِكَابَا*إِذَا رَابَ دَهْرٌ وَ كَانَ الدَّهْرُ رَيَّابَا**

1- شرح المعلقات السبع : 52

2- م ن : 13

*- و يلحق بالتناص موضوع آخر يشبهه ، و إن كان يصنف ضمن البديع ، هو التضمين الذي يدخل فيه الشاعر شيئا من شعر غيره كاملا أو مع تغيير طفيف ، ومن ذلك قول المعتمد :

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة *** أمامي و خلفي روضة وغدير

و صدر البيت هو لمالك بن الريب إذ قال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة *** بجنب الغض أزجي القلاص النواجيا

و قول المعتمد أيضا : فهاكها قطعة يطوي لها حسدا ** السيف أصدق أنباء من الكتب

و عجز البيت لأبي تمام : السيف أصدق أنباء من الكتب ** في حده الحد بين الجد و اللعب

3- ديوان الخنساء : 07

و أما المعتمد فيقول :

فَمَالي لا أَبْكِي أم القَلْبُ صَخْرَة

وَ كَمْ صَخْرَة في الأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْر (1)

إن كلا من الشاعرين يعاتب عينه التي شحت عن البكاء ، و تلك عادة الشعراء في الرثاء إذ لا يرضون فيه بغير الدموع منهمرة ، فإذا ما توقفت عدوا ذلك ذنبا و تقصيرا في حق الفقيد .

و لقد ذهب بعض الدارسين إلى أن المعتمد قلد في هذا المعنى قول ابن الرومي :

عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِر ** وَ لَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الحَجَر الصَّلد (2)

و هذا غير صحيح لأن المعنى في الأصل مأخوذ من قوله تعالى : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَالِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَة وَ إِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَار و إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاء)(3)

فهو إذن اقتباس و ليس تقليدا .

المعتمد و بشار بن برد :

إن أشهر بيت يذكره النقاد لبشار قوله :

1- ديوان المعتمد : 165

2- ينظر : تاريخ الأدب العربي : ابراهيم يوسف – محمد عبد النافع : 415

3- البقرة - الآية : 74

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ** وَ أَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه (1)

و إنما نال هذا الإعجاب لما فيه من حسن التشبيه ؛ إذ شبه شيئين بشيئين.

و المعتمد يلتقي مع بشار في هذا المعنى عندما كان في صدد وصف أحداث الزلاقة :

وَأَيْنَا السُّيوفَ ضُحَى كَاللَّجُـــــو ** ـمِ وَ كَاللَّيلِ ذَاكَ الغُبَارَ المُثَارا (2)

يصف الشاعر أجواء المعركة التي حجب فيها الغبار الرؤية فبدا كأنه الليل و بالمقابل أضفت السيوف اللامعة على الجو ضياء فكانت كالكواكب عند بشار ، و كالنجوم عند المعتمد .

المعتمد و ابن زيدون :

مثلما اتفق المعتمد في معان كثيرة مع شعراء المشرق ، اتفق أيضا مع شعراء عصره من الأندلس ، و من هؤلاء الشاعر الوزير ابن زيدون عندما قال :

يَا حُسْنَ إشْرَاقِ الدُّنُوِّ بَدَتْ *** كَوَاكِبًا في لَيَالِي بُعْدِهِ الجُون (3)

و مثل هذا قول المعتمد :

فَكَأَنَّمَا زَمَنُ التَّهَاجُرِ بَيْنَنَا ** لَيْلٌ و سَاعَاتُ الوِصَالِ بُدُور (4)

1- بشار بن برد – حياته و شعره : هاشم مناع : 51
2- ديوان المعتمد بن عباد : 160
3- ديوان ابن زيدون : 26
4- ديوان المعتمد :53

يتناص المعتمد مع ابن زيدون في التعبير عن لحظات البعد التي بدت كالليل طويلة مظلمة ، و بالمقابل كانت ساعات اللقاء و الوصال قصيرة تماثل ظهور كوكب أو بدر.

و في باب الغزل دائما يقول ابن زيدون :

(1)
لَهُ خُلْقٌ عَذْبٌ و خَلْقٌ مُحَسَّن ** وَ طَرْفٌ كَعُرْفِ الطِّيبِ أوْ نَشْوَةِ الخَمْرِ

أما المعتمد فيقول :

(2)
مُحَيِّرَة العَيْنَيْنِ في غَيْرِ سَكْرَةٍ ** مَتَى شَرِبَتْ أَلْحَاظُ عَيْنَيكِ اسْفَنْطا

وهنا يشترك الشاعران في التعبير عن تشابه نشوة الغزل و نشوة الخمر.

2- المستوى اللغوي الجمالي :

(3)"
قالت العرب : " لسان المرء كاتب قلبه إذا أملى عليه شيئا أبانه ، فالفن و الشعر خصوصا مبعثه الوجدان و لسان حاله اللغة التي تنقل تلك المشاعر و الأجواء النفسية إلى أرض الواقع .

فاللغة إذن هي أساس أي عمل فني و شعري " يستخدم الكلمة أداة للتعبير ... و هي النافذة التي من خلالها نطل و من خلالها نتنسم و هي المفتاح الذهبي

1- ديوان ابن زيدون : 28
2- ديوان المعتمد : 58
3- الممتع في صناعة الشعر : عبد الكريم النهشلي : 33

(1)"
الصغير الذي يفتح كل الأبواب .

هذا عن اللغة عموما ، فماذا عن لغة الشعر ؟

الواقع أن " اللغة الشعرية تختلف عن غيرها من حيث إن كلماتها ترقى إلى المستوى الذي لا يبلغه سواها ، و من ثم كان تميز الدلالة الشعرية عن الدلالة (2)"
التي تقتصر فيها اللغة على الإشارة إلى الأشياء أمرا أفاض فيه الباحثون .

من هنا فإن اللغة الشعرية تتميز من نواحيها البيانية و البديعية و الموسيقية التي لا توجد في غيرها .

أ- البيان :

يعد البيان الباب الأول في البلاغة و قد عني به الدارسون قديما و حديثا و أولوه أهمية كبيرة ، و في الشعر العربي نجده يشغل حيزا واسعا ، فلا تكاد أي قصيدة تخلو من ضروبه المختلفة ، من تشبيه و كناية و استعارة .

و المعتمد كغيره من الشعراء لا يخلو شعره من بيان ، وإن كنا نسجل تفاوتا في الجودة و الكثرة ؛ ذلك ما اقتضته الأجواء النفسية و الأغراض المتعددة .

التشبيه :

عني الشعراء بضروب البيان جميعها إلا أنهم أعطوا التشبيه الجانب

1- الشعر العربي المعاصر : عز الدين اسماعيل : 173
2- الشعر و اللغة : لطفي عبد البديع : 04

الأوفر من العناية ، " فالفتنة بالتشبيه فتنة قديمة تلخص المنهج العربي

المحافظ الذي ينظر إلى الشعر القديم في روعة و إجلال ، و قد تلاحقت
التشبيهات فيه تلاحقا كأنما يريد الشاعر ألا يتوقف عند غاية (1)" .

وقد استحسن النقاد التشبيه الذي " يقع موقعه المقبول المرضي حين يبين عن
المعنى الذي أراد المتكلم أن يبين عنه (2)" ، و قد أشار ابن خلدون إلى هذا الأمر

في مقدمته فقال : " لا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه
إلى الذهن (3)" ؛ فقد كره الدارسون ذلك الشعر المهجن الذي يذهب فيه الشاعر

أبعد مذهب في الإغراب ، كقول الشاعر :

وَ مَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكا ** أَبُوَ أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُه
(4)"

و قد علق المبرد عليه قائلا : كأن هذا الشعر لم يجمع في صدر رجل واحد .

و التشبيه ينقسم من حيث وجه الشبه إلى ثلاثة أقسام : بليغ و ضمني

و مقلوب ، و المعتمد أكثر من القسم الأول فمن ذلك قوله :

يَا صَفْوَتِي مِنَ البَشَر ** يَا كَوْكَبًا بَلْ يَا قَمَر
(5)
يَا غُصْنًا إِذَا مَشَى ** يا رَشَأ إِذا نَظَـــــر

شبه محبوبه في البيت الأول بالكوكب و القمر ، و في الثاني بالغصن و الرشأ

1- الصورة الأدبية : مصطفى ناصف : 46
2- دراسة في البلاغة و الشعر : محمد محمد أبو موسى : 102
3- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون : 526
4- الكامل : المبرد : 1/ 30- 31
5- ديوان المعتمد: 20

و يقول أيضا مشبها المحبوبة بالشمس :

(1)
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَ هِي شَمْسُ الضُّحَى ** كَيفَ مِنَ الأَنْوَارِ تَرْتَاع

و يشبه نفسه في موضع آخر بالهزبر و "اعتماد" بالظبية :

(2)
يَا ظَبيَةً سَلَبَتْ فُؤادَ مُحَمَّد ** أَوَ لَمْ يُرَوِّعْكِ الهِزَبْرُ البَاسِل ؟

كما يشبه الخمر بالسيف فيقول :

(3)
لا يَسْتَبِيكَ الهَمّ نَفْسَك غُنْوَة ** وَ الكَأْسُ سَيْفٌ في يَدَيْكَ صَقِيل

ثم يشبهها بالذهب و الفضة :

(4)
لَوْ زُرْتَنَا لَرَأَيْتَ مَا لَمْ تَعْهَد ** نَوْبَ اللُّجَين خَلِيطَ نَوْبِ العَسْجَد

و يشبه نفسه بالليث مفتخرا، فيقول :

(5)
فَرَاقِبُوا عَنْ قُرْبٍ- لا أَبَا لَكُم- *** هُجُومَ لَيْثٍ بِدِرْعِ البَأْسِ مُشْتَمِل

و في باب الأسريات يشبه ابنيه بكوكبين :

(6)
هَوَى الكَوْكَبَانِ الفَتْحُ ثُمَّ شَقِيقُهُ ** يَزِيدُ فَهَلْ بَعْد الكَوَاكِبِ مِنْ صَبْر

و التشبيه من حيث الأداة يقسم إلى مرسل و مؤكد ، فمن المرسل قوله :

1- الديوان : 26
2- م ن : 38
3- م ن : 66
4- م ن : 74
5- م ن : 106
6- م ن : 163

كَمْ بِتُّ مِنْكُم بَيْنَ غُصْنَي بَانَةٍ *** كَالسَّيْفِ تَضْغَط مَتْنَه الأغْمَاد (1)

و قوله أيضا :

رَأَيْتَا السُّيُوفَ ضُحَى كالنُّجُـو ** م و كاللَّيْلِ ذَاك الغُبَار المُثَارا (2)

و من التشبيه المؤكد قوله :

هِيَ الظَّبْي جِيدًا وَ الغَزَالَةُ مُقْلَة**و رَوْضُ الرُّبى وَ غُصْن النَّقا قَدا (3)

و لعل الملاحظ في تشبيهات المعتمد اتسامها بالبساطة و الوضوح ، و بعدها عن الغرابة و الإبهام ، فهي توضح كنه الشاعر في ذهن المستمع بأبسط صورة .

١

الاستعارة :

يعرف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة ، فيقول : " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر في غير ذلك الأصل .. فيكون هناك كالعارية . (4)"

و قد اتفق النقاد على مكانة " الاستعارة الفطرية من الشعر فكل ما عدا

1- الديوان : 45
2- م ن : 160
3- م ن : 50
4- أسرار البلاغة : 27

الاستعارة من خواص الشعر يتغير .. و لكن الاستعارة تظل مبدأ جوهريا ، "(1)

وبرهانا جليا على نبوغ الشاعر .

و الاستعارة حاضرة بقوة في شعر المعتمد ، فمن ذلك قوله :

(2)

ا لصُّبْحُ قَدْ مَزَّقَ الدُّجَى *** فَمَزِّقَ الهَمَّ بِكَفَّي مَها

جعل الشاعر للصبح أيديا يمزق بها و جعل من الهم و الدجى أشياء تمزق .

و يجعل في موضع آخر من الصبر إنسانا يرحل و يتكلم :

(3)

رَحَلَ اصْطِبَارِي إذْ رَحَلْتُم قَائِلا : *** أوْبُ الأحِبَّةِ بَيْنَنَا المِيعَاد

وهو إذا بكى فلابد أن تبكي معه قصوره ، فهي تحزن لحزنه و تتألم لألمه :

(4)

بَكَى المُبَارَكُ في إثْرِ ابْنِ عَبَّادِ *** بَكَى على إثْرِ غِزْلاَنٍ وَ آسَاد

و يضيق صدر المعالي هما و غما لحال المعتمد :

(5)

قَدْ ضَاقَ صَدْرُ المَعَالي إذْ نُعِيتَ لَهَا **وَ قِيلَ إنَّ عَلَيكَ القَيْدَ قَدْ ضَاقَا

و يجعل للخطوب أيديا تحمل السيوف لتفتك به :

(6)

سَلَّت عَلَيَّ يَدُ الخُطُوبِ سُيُوفَهَا ** فَجَنَنْتَ مِنْ جِلْدِي الخَطِيفِ الأمْتَنَا

أما قرطبة فصورها امرأة حسناء يتنافس على خطبتها أسد الرجال :

1- الصورة الأدبية : 124
2- الديوان : 22
3- م ن : 45
4- م ن : 161
5- م ن : 180
6- م ن : 191

(1)
خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الحَسْنَاء إذْ مَنَعَت ** مَنْ جَاءَ يَخْطُبُها بالبِيضِ وَ الأسَل

الكناية :

إذا كان التشبيه و الاستعارة شغلا الجزء الأكبر من الشعر العربي فإن للكناية أيضا حضورها – و إن قل – و الكناية أيضا تتطلب إعمال الفكر فهي (2)"

" ترك التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك

و من أمثلة ذلك قول المعتمد :

(3)
بالعَقْلِ تَزْدَحِمُ الهُمُومُ عَلَى الحَشَا ** فالعَقْلُ عِنْدِي أنْ تَزُولَ عُقُول

فقوله (تزول عقول) كناية عن سكرة الخمر ، و مثل هذا قوله :

(4)
نَتَعَاطى التي تُنْسِيكَ في اللَّذَّ ** ةِ وَ الرِّقَّةِ الهَوَى وَ الهَوَاء

و البيت كله كناية عن الخمر .

و يقول :

(5)
وَكَمْ سَقَانِي وَ اللَّيْلُ مُعْتَكِرِ *** في جَامِدِ المَاء ذَائِب الوَرْد

فقوله جامد الماء كناية عن الكأس و قوله ذائب الورد كناية عن الخمر .

و يقول منوها بيوم الطين :

1- الديوان : 105
2- شرح الكافية البديعية في علوم اللغة و محاسن البديع : صفي الدين الحلي : 201
3- ديوان المعتمد : 66
4- م ن : 68
5- م ن : 71

يَطَأْنَ في الطِّينِ وَ الأقْدامُ حَافِية ** كَأَنَّها لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وَ كَافُورا (1)

و يقول :

وَ أَنْتَ ابْن حَمْدِيسَ الَّذي كُنْتَ مُهْدِيًا

لَنَا السِّحْرَ إنْ لَمْ نَأْتِ في زَمَنِ السِّحْر (2)

فكلمة السحر الأولى كناية عن الشعر .

و يبدو مما سبق أن الكناية بدورها تمتاز بالبساطة فهي سهلة الفهم بعيدة عن الإغراب لاسيما ما تعلق منها بشعر الأسريات ؛ إذ " نظر المغتربون إلى الصورة بوصفها وسيلة فنية لتجسيم أحاسيسهم النفسية و رصد حيثياتهم العاطفية لذلك لم يحفلوا بتفاصيلها أو التركيز عليها (3)" .

و مثلما عني المعتمد بالجانب البياني عني كذلك بالجانب البديعي فلا يكتمل الأول إلا بالثاني .

ب- البديع :

عني الأدباء و النقاد بالبديع ، فأفردوه جهودهم و دراساتهم لاسيما الشعراء الذين حاولوا " إعطاء شعرهم طاقة من التجديد الفني (4)" .

و قد بلغ اهتمام بعضهم بالبديع لدرجة أسسوا على إثرها اتجاها يعنى

1- الديوان : 169
2- م ن : 173
3- الاغتراب في الشعر الأموي : 184
4- المذهب البديعي في الشعر و النقد : رجاء عيد : 51

بالصنعة اللفظية ، و كان رائدها أبو تمام الذي سار على خطاه شعراء كثر.

والمعتمد أولى عناية خاصة بالجانب البديعي و لعله تأثر في ذلك - على غرار الأندلسيين – بالمدرسة التمامية ، و هذا بعض منها :

المحسنات المعنوية :

التقسيم :

"التقسيم هو أن تذكر شيئا ذا جزأين فصاعدا ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك . و من أمثلة ذلك قول المعتمد : (1)"

دَاوى ثَلاَثَة بِلُطْفِ ثَلاَثَة ** فَتَنَى بِذَاكَ رَقِيبُهُ لَمْ يَشْعُرَ
أَسْرَارَه بِتَسَتُّرٍ ، وَ أُوارَه ** بِتَصَبُّرٍ ، وَ خَبَالَهُ بِتَوَقُّرِ (2)

الطبـــاق :

" المطابقة هي الإتيان بلفظين متضادين فكأن المتكلم طابق الضد بالضد . (3)"

و من أمثلة ذلك قول المعتمد :

لحَاظُكَ طُولَ الدَّهْرِ حَرْبٌ لِمُهْجَتِي ** ألاَ رَحْمَةً تَثْنِيكَ يَوْمًا إلى سَلمِي (4)

و يقول أيضا :

1- شرح الكافية : 169
2- ديوان المعتمد : 42
3- شرح الكافية : 72
4- ديوان المعتمد : 19

الصُّبْحُ قَدْ مَزَّقَ الدُّجى ** فَمَزِّقَ الهَمَّ بِكَفَّي مَهَا (1)

و يقول :

أَهْدَى لَنَا مِنْ لَطِيفِ حِكْمَتِهِ ** في جَامِدِ المَاءِ ذَائِبَ الذَّهَب (2)

و يقول :

وَ عَادِلاً في النَّاسِ لَكِنَّهُ ** أَصْبَحَ للأَمْوَالِ ظَلَّامَا (3)

و يقول :

تُرَاهُ عَسِيرًا أَوْ يَسِيرًا مَنَالُهُ ** أَلا كُلُّ مَا شَاءَ الإِلَهُ يَسِير (4)

و في شعر المعتمد طباقات كثيرة عكست صور حياته المنقلبة و المتقابلة ؛ فقد ذاق الفقر بعد الغنى ، و الذل بعد العز ، و الأسر بعد الحرية .

المحسنات اللفظية:

التطريز: و هو " أن تقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن كالطراز في الثوب (5) ، على أن " هناك ضربا آخر من التطريز تفنن فيه المتأخرون و قصدوا أن يجعل الشاعر حروف أوائل الأبيات تشكل اسما معينا (6) .

1- ديوان المعتمد : 22
2- م ن : 24
3- م ن : 92
4- م ن : 172
5- موسيقى الشعر العربي : حسين عبد الجليل يوسف : 1/ 174
6- الشعر الأندلسي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين : 117

و من أمثلة ذلك الأبيات التي نظمها المعتمد و شكل من فواتحها اسم اعتماد :

أَغَائِبَةَ الشَّخْصِ عَنْ نَاظِرِي ** وَ حَاضِرَةً في صَمِيمِ الفُؤَاد

عَلَيكِ السَّلاَم بِقَدْرِ الشُّجُونِ ** وَ دَمْعِ الشُّؤُونِ وَ قَدْرِ السُّهَاد

تَمَلَّكْتِ مِنِّيَ صَعْبَ المَرَامِي ** وَ صَادَفْتِ وِدِّيَ سَهْلَ القِيَـــاد

مُرَادِيَ لُقْيَاك في كُلِّ حِينٍ ** فَيَا لَيْتَ أَنِّي أُعْطى مُـــــرَادِي

أَقِيمِي عَلى العَهْدِ مَا بَيْنَنَا ** وَ لا تَسْتَحِيلي لِطُولِ البِعَـــــادِ

دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلْو في طَيّ شِعْرِي **وَ أَلَّفْتُ فيه حُرُوفَ اعْتِمَـــاد (1)

الجناس :

الجناس هو توافق الكلمات شكلا و اختلافها في المعنى و هو أنواع عديدة أكثرها استعمالا تجنيس التركيب و هو " ما تماثل ركناه و كان أحدهما كلمة مفردة و الآخر مركبا من كلمتين فصاعدا (2)" ، و التجنيس التام و هو " ما تماثل ركناه لفظا و خطا (3)" ، من ذلك قول المعتمد :

إذا عِلَّة كَانَت لِقُرْبِك عِلَّة ** تَمَنَّيتُ أَنْ تَبْقَى بِجِسْمِي وَ أَنْ تَقْوى (4)

فالعلة الأولى تعني المرض و الداء ، أما العلة الثانية فتعني السبب .

و يقول أيضا :

1- الديوان : 40
2- شرح الكافية : 60
3- م ن : 64
4- ديوان المعتمد : 57

قَالَت : لَقَدْ هُنَّا هُنَا ** مَوْلاَيَ أَيْنَ جَاهُنَا (1)

و يقول :

أبَا خَالِد أوْرَثْتَنِي البَثَّ خَالِدًا ** أبَا النَّصْرِ مُذْ وَدَّعْتَ وَدَّعَنِي نَصْرِي (2)

فخالد الأولى كنية الراضي ولده ، و الثانية تعني الخلود و الدوام ، وأما أبو النصر فكنية المأمون وأما الثانية فتعني الفوز .

(*)

و من الجناس الناقص قوله :

سَأَلُوا العَسِيرَ مِنَ الأَسِيرِ وَ إِنَّهُ ** بِسُؤَالِهِم لأَحَقُّ مِنْهُمْ فَأَعْجَب (3)

و قوله أيضا :

نَعِيمٌ و بُؤْسٌ ذَا لِذَلِكَ نَاسِخٌ ** و بَعْدَهُمَا نَسْخ المَنَايَا الأَمَانِيَا (4)

و من تجنيس التركيب قوله :

قُلْتُ لَهَا إلى هُنَـــا *** صَيَّرَنَا إلَـــــهُنَا (5)

1- الديوان : 191

*- الجناس الناقص هو اختلاف الكلمات إما في نوع الحروف أو عددها أو ترتيبها .

2- الديوان : 164

3- م ن : 154

4- م ن : 184

5- م ن : 19

ج- الإيقاع:

ركز دارسو الأدب و نقاده على أن الشعر يجمع بين الخيال و العاطفة و النغم ، و ذلك يعني أن الشعر الذي يفقد أحد هذه العناصر ليس شعرا، حتى لو أشبه الشعر في شكله و قوالبه ، بل إن كثيرا من هؤلاء يقدمون التنغيم لأهميته على غيره من المقومات .

و الإيقاع هو وحدة النغمة التي تتكرر في الكلام أو البيت بصورة من الصور وهو توالي الحركات و السكنات على نحو منتظم في أبيات الشعر .

1- التكرير الصوتي القفوي :

التربيد: هو " أن يعلق المتكلم أو الشاعر لفظة من الكلام ثم يرددها بعينها (1)"
و يعلقها بمعنى آخر . من ذلك قول المعتمد :

هَذِي جُفُونِي أَقْسَمَتْ ** لا تَلْتَقِي مَا لَمْ تُلاَقِـك
صلِي جَمِيلَ الظَّنِّ بِي ** وَ ثِقِي فَقَلْبِي في وِثَاقِكِ (2)

أما التماثل الصوتي فيتمثل في قوله : لا نلتقي ، ما لم تلاقك ، ثقي ، في وثاقك

التعطف : هو " أن تذكر اللفظ ثم تكرره و المعنى مختلف و يكون في القوافي . و من ذلك قول المعتمد : (3)

1- شرح الكافية : 148
2- ديوان المعتمد : 56
3- موسيقى الشعر العربي : 1/ 181

غُلَامِيّة جَاءَتْ وَ قَدْ جَعَلَ الدُّجَـى ** لِخَاتَمِ فِيهَا فَصٌّ غَالِية ، خَـــطَّا

أَرَى نَكْهَةَ المِسْوَاكِ فِي حُمْرَةِ اللَّمى**وَ شَارِبك المُخْضَرَّ بالمِسْكِ قَدْ خُطا

عَسَى قُرْحًا قَبّلتُهُ ، فَأَخَالُـــه ** عَلَى الشَّفَةِ اللَّمْيَاء قَدْ جَاءَ مُخَـــطَّا (1)

و الكلمات المقصودة : خطا في آخر كل بيت .

2- القافية :

تطلق القافية في الغالب الروي ، و لو تتبعنا شعر المعتمد وجدناه يوظف قوافي معينة في أغراض معينة ، أما القافية الطاغية فهي الراء في أكثر من أربع و ثلاثين مقطوعة .

و الراء نوعان : مرققة و مفخمة و هي صوت مكرر . (2)

و مما يلاحظ جليا أن المعتمد وظف الراء المفخمة أيام سعوده كقوله :

عِلْمًا ، لَعَمْرك مِنْهَا أَنَّهَا قَمَر ** هَلْ تَحْجُب الشَّمْسَ إلا صَفْحَةُ القمر ؟ (3)

و قوله :

الجُودُ أَحْلَى عَلى قَلْبِي مِنَ الظَّفَرِ ** وَ مِنْ مَنَالِ قَصِيّ السُّؤْلِ وَ الْوَطَرِ (4)

1- ديوان المعتمد : 58

2- ينظر : الأصوات اللغوية : ابراهيم أنيس : 66- 67

3- ديوان المعتمد : 23

4- م ن : 107

(*)
و بالمقابل وظف الشاعر الراء المرققة في أسرياته كقوله :

(1)
وَ نَاحَتْ فَبَاحَتْ وَ اسْتَرَاحَتْ بِسِرّهَا ** وَ مَا نَطَقَتْ حَرْفًا يَبُوحُ بِهِ سِرِ

ثم انظر إلى الحاء التي تكررت خمس مرات مع السين بثلاث مرات ، الأمر الذي أحدث جوا حزينا تمتد فيه الأحزان امتداد المد الذي تكرر أربع مرات .

و قوله من الراء المرققة أيضا :

(2)
غَرِيبٌ بِأَرْضِ المَغْرِبِينَ أَسِير ** سَيَبْكِي عَلَيْهِ مِنْبَرَ وَ سَرِير

و الأمر سيان في هذا البيت إذ تكررت السين و هي من حروف الصفير التي تبعث على الحزن و الألم ، و ما زاد الجو كآبة تكرار الراء ، و كأن المأساة تتكرر دونما انقطاع .

و يأتي بعد القافية الرائية القافية الدالية بأكثر من ثلاثين مقطوعة ، و" الدال (3)
صوت شديد مجهور ، لهذا نجد الشاعر وظفه بكثرة في شعره أيام الرخاء ، على حين لم يستعمله في أسرياته إلا في أربعة مواضع .

و إلى جانب الراء و الدال نقف على القافية الميمية ، و تتقاسم المرتبة الرابعة (4)
الباء واللام و النون ، أما الباء فهو" صوت شديد مجهور ، و لا نجد المعتمد

---

*- الراء المرققة ما سبقت بياء أو كسرة .
1- ديوان المعتمد : 164
2- م ن : 171
3- الأصوات اللغوية : 48
4- م ن : 48

استعمله أكثر من أربع مرات في أسرياته ، و ذلك عندما كان في صدد استرجاع ذكريات المجد و القوة كقوله :

قَدْ كَانَ يَسْتَلِبُ الجَبَّارَ مُهْجَتَه ** بَطْشِي وَ يَحْيَا قَتِيلُ الفَقْرِ في طَلَبِي (1)

أو ما كان من قبيل الزهديات كقوله :

وَ لَا يَغْرُرْكَ مِنْهَا حُسْنُ بَرْد ** لَهُ عَلَمَانِ مِنْ ذَهَبِ الذَّهَاب (2)

على حين نجده وظف القافية البائية بشكل قوي أيام سعوده ،لاسيما ما كان من قبيل المدح لأبيه كقوله :

وَ غَدَوْتَ تُخْشَى لِلْعِقَـــا ** بِ كَمَا تُرْجَى لِلثَّوَاب (3)

أما اللام فهي نوعان : مرققة و مفخمة ، على أن الأصل في اللام العربية الترقيق (4) . و الملاحظ جليا أن المعتمد لم يوظف اللام في أسرياته إلا مرتين ، مرة مرققة في قوله :

بَكَيت إلى سِرْبِ القَطَا إذْ مَرَرْنَ بي **سَوَارِح لا مِسْجُنٌ يَعُوقُ وَ لَا كَبِل (5)

و مرة مفخمة في قوله :

وَ كُنَّا إذا حَاتَتْ لِحَرْبٍ فَرِيضَة ** وَ نَادَتْ بِأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ طُبُول (6)

1- الديوان : 190
2- م ن : 152
3- م ن : 87
4- ينظر : الأصوات اللغوية : 65
5- ديوان المعتمد : 187
6- م ن : 179

أما في باقي الأغراض فوظف القافية اللامية موزعة بين الترقيق و التفخيم ، فمن المرققة قوله :

وَ قُلْتُ خُذِي جَوْهَرا ثَابِتًا ** فَقَالَتْ خُذُوا عَرَضًا زِائِلا (1)

و من المفخمة قوله :

مَنْ شَكّ أنّي هَائِم بِكِ مُغْرَمٌ*** فَعَلى هَوَاك لَه عَلَيَّ دَلائِلُ (2)

ثم تأتي النون و هي " صوت مجهور متوسط بين الشدة و الرخاوة ، و قد وزعها المعتمد بين مختلف الأغراض الشعرية ، أما باقي القوافي فقد نظم فيها المعتمد بدرجات متقاربة .

و إذا وقفنا على توظيف الشاعر للقافية المقيدة و المطلقة ، وجدناه تجنب المقيدة منها في أسرياته ، و ليس الأمر بغريب فهو أسير مقيد فلا أقل من أن يجعل شعره حرا طليقا يلتمس به ما لم يصل إليه على أرض الواقع ، و أكثر من ذلك فقد جنح المعتمد إلى إشباع القافية في مثل قوله :

قَدْ ضَاقَ صَدْرُ المَعَالي إذْ نُعِيتَ لَهَا **وَ قِيلَ إنَّ عَلَيكَ القَيْدَ قَدْ ضَاقا (4)

و قوله :

1- الديوان : 35
2- م ن : 38
3- الأصوات اللغوية : 67
4- ديوان المعتمد : 180

(1)
قَيْدِي أمَا تَعلَمُنِي مُسْلِمًا ؟ *** أبَيتَ أنْ تُشْفِقَ أوْ تَرْحَمَا

على حين وجدناه وظف القافية المقيدة في باقي الأغراض لاسيما في الغزل ؛ و كأنه ارتضى لنفسه أن يكون أسير المحبوب و الهوى ،كقوله :

(2)
أوَ لَيْسَ وَجْهُكَ فَوْقَهُ قَمَر *** يُجلي بنَيّر نُورِهِ الحَلَكْ ؟

3- البحـــــر :

إن البحر الغالب عند المعتمد هو بحر الكامل الذي يشغل " حيزا كبيرا (3)" في شعر الأندلس .. و يعد هذا البحر أكثر البحور الشعرية جلجلة .

و إذا نحن فصلنا في الأغراض وجدنا البحر الغالب في شعر الأسريات هو الطويل و البسيط ذلك أن هذين البحرين هما الأنسب في باب الشكوى و استعادة الماضي و التحسر على الحاضر ؛ لطول النفس فيهما و ملاءمتهما لأسلوب القص ، كقوله من البسيط :

(4)
نَعَم هُوَ الحَقُّ وَافَتِي بِهِ قَدَر ** مِنَ السَّمَاءِ فَوَافَتِي لِميعَاد

ومن الطويل قوله :

(5)
يُعِيدُ عَلَى سَمْعِي الحَدِيدُ نَشِيدَهُ ** ثَقِيلاً فَتَبكِي العَيْنُ بالجَسّ وَ النَّقر

1- الديوان : 181
2- م ن : 60
3- الشعر الأندلسي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين : 131
4- ديوان المعتمد : 193
5- م ن : 163

ونجده بالمقابل يوظف البحور الغنائية في أغراض الغزل و الخمريات و غيرها ، كقوله من الخفيف :

اُشْرَبِ الكَأْسَ في وِدَادِ وِدَادِكَ ** وَ تَأَنَّس بِذِكْرِهَا في انْفِرَادِك (1)

و قوله من الرجز المجزوء :

يَا رَبَّةَ اللَّحْظِ الّذي *** شَدَّ وِثَاقًا إذْ فَتَر (2)

د- الحوار:

قسم البلاغيون الكلام إلى إنشاء و خبر ، و إذا كان الخبر عادة ضعيف الأثر في نفس المتلقي ، فإن الإنشاء بخلافه يؤثر فيه تأثيرا قويا.

و المعتمد أكثر من توظيف الإنشاء ، و لكن بدرجات متفاوتة ؛ فنحن نجده يكثر من النداء و الاستفهام و الالتماس أيام سعوده كقوله :

قُلْتُ : مَتَى تَرْحَمُنِي ؟ *** قَالَ : وَ لاَ طُولَ الأَبَدَ (3)

و قوله :

أَيَا مَلِكًا عَمَّنِي فَضْلُه *** وَ لَمْ أُلْفِ في بَحْرِ نُعْمَاه زَجْرا (4)

ونجده بالمقابل يوظف الإنشاء بكل أنواعه في أسرياته محملا إياه أغراضا بلاغية شتى ، من ذلك قوله :

1- الديوان : 73
2- م ن : 20
3- م ن : 20
4- م ن : 90

مَاء السَّمَاء على أبْنَائِهِ دُرَرٌ ** يَا لُجَّةَ البَحْرِ دُومي ذَات إزْبَاد (1)

انظر إليه كيف مزج بين النداء و الأمر ليدلا معا على الدعاء و التمني .

و قوله :

نَارٌ وَ مَاءٌ صَمِيمُ القَلْبِ أَصْلُهُمَا ** مَتَى حَوَى القَلْبُ نِيرَانًا وَ طُوفَانا ؟ (2)

و هو استفهام غرضه التعجب .

ثم انظر إلى هذا التمني البعيد المنال ، المرجو الحصول و لو على سبيل الوهم :

فَيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أبِيتَنَّ لَيْلَة ** أَمَامِي وَ خَلْفِي رَوْضَةٌ وَ غَدِيرُ ؟ (3)

و انظر إلى قوله :

قَيْدِي أمَا تَطْعَمُنِي مُسْلِمًا ؟ ** أبَيْتَ أنْ تُشْفِقَ أوْ تَرْحَمَا (4)

فهو ينادي قيده دون استعمال أداة النداء ، و كيف ينكرها وهو ملتصق بجلده لا يفارقه ، أما سؤاله إياه فغرضه الإنكار .

هذا ، و في شعر الأسريات فيض من الأساليب الإنشائية المنوعة يضيق المقام بذكر جميعها .

1- الديوان : 161
2- م ن : 166
3- م ن : 172
4- م ن : 181

هو ذاك المعتمد الشاعر المرزأ و الملك الأسير ، في شعره فنيات كثيرة ، تنم عن شاعريته لغته البسيطة و أساليبه السهلة، و صوره المتنوعة كلها تشهد بحق على شاعر قال الشعر للشعر، فكان شعره صورة حية لتجربة أندلسية خالصة لا تشوبها شائبة .

خاتمـــــــة

يقال " إن مسافة الألف ميل تبدأ من أول خطوة ، و لعل هذه المذكرة هي بداية الطريق في دراسة الأدب الأندلسي .

وقد لامست في دراستي لشعر المعتمد بعض الوقائع أجملها في النقاط التالية :

1- لم يتجه غزل المعتمد اتجاها واحدا على غرار أكثر الشعراء ، و لكنه مزيج من العفيف و الماجن و العادي .

2- نال الغزل الحظ الأوفر في ديوان المعتمد ،على حين نجد نظما متفاوتا بين مختلف الأغراض التي نظمها أيام سعوده ، و يأتي في الرتبة الثانية شعر الأسريات .

3- وجه المعتمد مدحه و اعتذاره نحو شخص واحد هو المعتضد .

4- تمحور فخر المعتمد أيام سعوده حول الكرم و الجود و الشجاعة ، و لم ينوه بنسبه إلا بعد أسره فقد هاله أن تتوسد الثريا الثرى .

5- غلب على شعر المعتمد أيام الصفاء التصنع و التقليد ، و إن لم يخل من الرقة و العذوبة و المشاعر الصادقة التي لا يعتريها رياء ، لاسيما ما كان مع اعتماد و المعتضد .

6- اتسم شعر الأسريات بالعفوية و العذوبة ، كما كان صورة صادقة للمعاناة التي عاشها المعتمد .

7- إذا كان أكثر الأندلسيين تأثروا بمدرسة المتنبي و أبي تمام ، فإن المعتمد امتد تأثره إلى شعراء آخرين أمويين و إسلاميين .

8- و قد تبين لنافي الأخير أن المعتمد هو زعيم شعراء المنفى و السجون بلا منازع ، كيف لا و هو الملك الشريف و الشاعر الفارس ، نزل من العليين إلى الحضيض ، و شاركه المأساة أسرته لذلك كانت معاناته مضاعفة،و أكثر من ذلك فالشعراء الأسرى إذا استوحشوا ظلمات السجن أطلقوا العنان لأشعارهم يبكون و يتوسلون أملا في العفو ، و لكن الأمر مختلف مع المعتمد، ذلك أنه يعلم حق اليقين أن لا نجاة و لا مخرج ، بل أسر طويل ، في سجن ضم مثواه الأخير .

و لعل ما توصلت إليه لم يكن بالأمر الخفي و لا بالشيء العظيم ، بيد أنها محاولة لإزالة الغبار عن شاعر قصمه الدهر ، و لم تنصفه الأنام و كأن الغربة كتبت على المعتمد في حياته و بعد مماته .

و مع هذا يبقى المعتمد بن عباد شمعة من شموع الأندلس التي انطفأت ، لكن نورها لا يزال مشعا أبدا في النفوس الرقيقة و القلوب الحية .

فهرس

المصـــــادر

و

المراجـــــع

1- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب – تح : محمد عبد الله عنان – مكتبة الناجي ط1، القاهرة 1974 .

2- أخبار و تراجم أندلسية : إحسان عباس – دار الثقافة ، بيروت ط2 1979

3- الأدب الإسلامي ماهيته و مجالاته : العرابي لخضر – دار الغرب للنشر و التوزيع – وهران ، 2003 .

4- الأدب الأندلسي التطور و التجديد : محمد عبد المنعم خفاجي – دار الجيل ط1 بيروت – 1992 .

5- الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه : مصطفى الثكعة – دار العلم للملاين ط2 بيروت – 1974

6- أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث : بطرس البستاني – دار الجيل ، بيروت 1997 .

7- الأدب العربي في الأندلس : عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية ط2 بيروت – 1976 .

8- أزهار الرياض في أخبار عياض : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني – اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المغرب،الإمارات

09- أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار بين الأعشى و الجاهليين:
محمد محمد حسين – دار النهضة العربية بيروت – 1972 .

10- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني – تح : محمد الفاضلي –
المكتبة العصرية ، صيدا بيروت – 2003 .

11- الأصوات اللغوية : ابراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية ، ط4
القاهرة –1971.

12 - اشبيلية في القرن الخامس هجري : صلاح خالص – دار الثقافة
بيروت – 1965 .

13- أندلسيات غرناطة و الشعر : عبد الله حمادي – جامعة منتوري قسنطينة
2004 .

14- الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود : عصام
محمد شبارو .

15- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : أنيس المقدسي – دار العلم
للملايين، ط20 لبنان – 2000 .

16- بشار بن برد حياته و شعره : هاشم صلح مناع – دار الفكر العربي
ط1 بيروت – 1999 .

17- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب : ابن عذاري المراكشي –

دار الثقافة ط2 بيروت – 1980 .

18- تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس دار الشروق ط1 الأردن ، 2001 .

19- تاريخ الأدب العربي : ابراهيم يوسف ، محمد عبد النافع – منشورات مكتبة الوحدة العربية دار البيضاء .

20- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان – دار الهلال بيروت .

21- تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري – المطبعة البوليسية ، ط6 لبنان .

22- تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي ط2 بيروت ، 1974 .

23- تاريخ الأدب العربي – الأدب في المغرب و الأندلس : عمر الفروخ – دار العلم للملايين ط4 بيروت ، 1997 .

24- تاريخ الفكر الأندلسي : آنجيل جنثالث بالنثيا –تر : حسين مؤنس – مكتبة النهضة الدينية ، ط1 القاهرة 1955 .

25- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : محمد رضوان الداية – مؤسسة الرسالة ط2 ، دمشق 1981 .

26- تاريخ و حضارة الإسلام في الأندلس : السيد عبد العزيز سالم – مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية – 1985 .

27- تاريخ الوزراء و الكتاب و الشعراء : أبو نصر الفتح بن خاقان – تح : مديحة الشرقاوي – مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 القاهرة – 2001 .

28- تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص : محمد مفتاح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ، ط3 بيروت 1992 .

29- تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية و الإسلام : أحمد فلاق عروات – ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

30- تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام ، من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة : شكري فيصل – دار العلم للملايين ،ط6 لبنان – 1982 .

31- حول الأدب الأندلسي : قيصر مصطفى – مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر ، بيروت .

32– الحيوان : أبو عمرو الجاحظ – تح : عبد السلام هارون – دار الكتاب العربي ، ط3 بيروت – 1969 .

33– خريدة القصر و جريدة العصر : العماد الأصفهاني – قسم شعراء المغرب و الأندلس – تح : آذرتاش آذرنوش – الدار التونسية للنشر – 1971 .

34- دراسات في الأدب الأندلسي : محمد سعيد محمد – منشورات جامعة سبها ، ليبيا – ط1/ 2001 .

35- دراسات في أدب المغرب و الأندلس فوزي سعد عيسى – دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية – 2000 .

36- دراسة في البلاغة و الشعر : محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة ، ط1 القاهرة – 1991 .

37- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: محمد عبد الله عنان – مطبعة لجنة التأليف و الترجمة ، القاهرة – ط1/ 1960 .

38- ديوان أبي تمام : تقديم : محي الدين صبحي – دار صادر ،ط1 بيروت 1997 .

39- ديوا ن البحتري : دار صادر ، بيروت – دط دت .

40- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري : تح : وليد عرفات – دار صادر ، بيروت 1974 .

41- ديوان ابن حمديس : تح : إحسان عباس – دار صادر ، بيروت

42- ديوان ابن خفاجة : تح : سيد غازي – منشأة المعارف ، ط2 الاسكندرية

43- ديوان الخنساء : تح : كرم البستاني – دار صادر ، ط1 بيروت 1996

44- ديوان ابن الرومي : شرح : أحمد حسين بسج – دار الكتب العلمية ، ط1 بيروت- 1994 .

45- ديوان ابن زيدون – دار صادر ، بيروت .

46- ديوان الشافعي : أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي – تح : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية – ط2 القاهرة 1985 .

47- ديوان الشنفرى : تقديم : طلال حرب ، ط1 بيروت 1985 .

48- ديوان عمرو بن كلثوم – دار صادر ، ط1 بيروت 1996 .

49- ديوان عنترة – دار صادر ، ط1 بيروت 1992 .

50- ديوان الفرزدق : شرح : علي مهدي زيتون – دار الجيل ،ط1 بيروت – 1997 .

51- ديوان كعب بن زهير : تقديم : محمد يوسف نجم – دار صادر ، بيروت – ط1/ 1995 .

52- ديوان المتنبي – دار الجيل ، بيروت – دط دت .

53- ديوان المعتمد بن عباد : تح : رضا الحبيب السويسي – الدار التونسية للنشر – دط / 1975 .

54- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : أبو بكر الحسن علي بن بسام الشنتريني – تح : إحسان عباس – الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس – 1978 .

55- روميات أبي فراس الحمداني – دراسة جمالية : فضيلة بن عيسى – جامعة تلمسان- 2004 .

56- رياض الصالحين : الإمام النووي – تح : محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي ،ط1 بيروت – 1979 .

57- سقط الزند : أبو العلاء المعري – دار صادر ، بيروت .

58- سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر : محمد جلال الذهبي – مطبعة الأمانة، ط2 مصر .

59- شرح ديوان البحتري : إيليا حاوي –الشركة العالمية للكتاب ، بيروت – ط1/ 1996 .

60 - شرح الكافية البديعية في علوم اللغة و محاسن البديع : صفي الدين الحلي – تح : نسيب نشاوي ، ديوان المطبوعات الجزائرية – الجزائر .

61- شرح المعلقات السبع : أبو عبد الله الزوزني – المكتبة العصرية ، الرويبة الجزائر .

62- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين- مقاربة لخصائصه و فنونه في الفترة الأولى : محمد محي الدين – جامعة تلمسان ، 1998 .

63- الشعر الأندلسي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين- دراسة بلاغية و عروضية : عبد اللطيف شريفي – جامعة تلمسان ، 1991 .

64- شعر الحرب في أدب العرب : زكي المحاسني – دار المعارف ط2 مصر .

65- شعر ابن اللبانة الداني : تح : محمد مجيد السعيد – منشورات جامعة البصرة ، بغداد 1977 .

66- الشعر العربي في اسبانية و صقلية : الطاهر أحمد مكي – دار الفكر العربي ، القاهرة - 1999 .

67- الشعر العربي المعاصر : عز الدين اسماعيل – دار الكتاب العربي ، القاهرة – 1976 .

68- الشعر و البيئة في الأندلس : ميشال عاصي – المتب التجاري للطباعة و النشر ، ط1 بيروت – 1970 .

69- الشعر و اللغة : لطفي عبد البديع – دار نوبار للطباعة ، ط1 القاهرة – 1997 .

70- شعر محمد بن عمار الأندلسي : تعليق : مصطفى الغديري – منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، وجدة 2001 .

71- الصورة الأدبية : مصطفى ناصيف – دار الأندلس ،ط2 1981 .

72- طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي – شرح : محمود محمد شاكر – دار المدني ، جدة .

73- طوق الحمامة : ابن حزم الأندلسي – تح : صلاح الدين القاسمي – الدار التونسية للنشر تونس ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر – 1985 .

74- ظهر الإسلام : أحمد أمين – دار الكتاب العربي ، ط5 بيروت .

75- العمدة في صناعة الشعر و نقده : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني – تح : مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية ، ط1 بيروت – 1983 .

76- الاغتراب في الشعر الأموي : فاطمة محمد حميد السويدي – مكتبة مديوني –ط1 1997 .

77- الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح – جامعة محمد الخامس ،ط1 المغرب – 1993 .

78- الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث : عمر بوقرورة - منشورات جامعة باتنة .

79- الغزل في تاريخ الأدب العربي : أحمد الشايب – دار المعارف للطباعة و النشر ، تونس – .

80- الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون : عبد الله شريط – الشركة الوطنية للنشر و التورزيع ، الجزائر – 1981 .

81- فن الشعر : إحسان عباس – دار الثقافة ، ط2 بيروت .

82- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس : سيد عبد العزيز سالم – مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية – 1997 .

83- قصيدة المديح في الأندلس : أشرف محمد نجا – دار الوفاء للطباعة و النشر ، ط1 الاسكندرية .

84- القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة : عبد الله أنيس الطباع – دار ابن زيدون ، ط1 بيروت – 1986 .

85- الكامل في اللغة و الأدب : أبو العباس المبرد – تح : تغاريد بيضون ، نعيم زرزور – دار الكتب العلمية ، ط2 بيروت – 1989 .

86- لسان الدين بن الخطيب – حياته و تراثه الفكري : محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي ط1 القاهرة – 1968 .

87- لسان العرب : أبو الفضل بن منظور – دار صادر ، بيروت .

88- المبدعون في الشعر : سراج الدين محمد – دار الراتب الجامعية ، بيروت .

89- المذهب البديعي في الشعر و النقد : رجاء عيد – دار المعارف بمصر .

90- مطمح الأنفس و مشرح التأنس في ملح أهل الأندلس : أبو نصر الفتح بن خاقان – تح : محمد علي شوابكة – دار عمار مؤسسة الرسالة ، ط1 بيروت – 1985 .

91- المعتمد بن عباد : عبد الوهاب عزام – دار المعارف ط2 بمصر.

92- المعتمد بن عباد : نديم الرعشلي – دار الكتاب العربي ، بيروت .

93- المغرب في تاريخ الأندلس و المغرب : عبادة كحيلة – المطبعة الإسلامية الحديثة ، القاهرة 1997 .

94- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون – تقديم : محمد الاسكندراني – دار الكتاب العربي ، بيروت 2006 .

95- الممتع في صنعة الشعر: عبد الكريم النهشلي القيرواني – تح : محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر .

96- منهاج البلغاء و سراج الأدباء : أبو الحسن حازم القرطاجني – تح : محمد الحبيب ابن الخوجة – دار الغرب الإسلامي ، ط2 بيروت 1981

97- الموجز في الأدب العربي و تاريخه – الأدب في المغرب و الأندلس : دار الجيل ط3 يروت – 1991 .

98- موسيقى الشعر العربي : حسين عبد الجليل يوسف : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – 1989 . .

99- النابغة الذبياني : عمر الدسوقي – دار الفكر العربي ،ط4 بيروت – 1966 .

100- انتصارات يوسف بن تاشفين : حامد محمد الخليفة – مكتبة الصحابة ، الإمارات ،ط1 الشارقة – 2004 .

101- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقري التلمساني – تح : يوسف الشيخ محمد البقاعي – دار الفكر للطباعة و النشر ، ط1 بيروت 1998 .

102- أبو نواس بين العبث و الاغتراب و التمرد : أحلام الزعيم – دار العودة ، ط1 بيروت 1981 .

103- يتيمة الدهر : الثعالبي النيسابوري – مطبعة الصاوي ، مصر – 1931 .

استدراك

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
المحبوبة	16	11	المحبوب
جنتي	17	04	وجنتي
تسقيني	20	02	تُسقّيني
دجنة	22	14	دُجنّة
لطار	59	04	لطارا
الفرار	59	05	الفرارا
الحَدق	64	08	الحِدَق
منبتة	65	08	منبتّة
المدلهمات	70	08	المدلهمّات
الدواءِ	73	04	الدواءُ
عناني	76	08	غناني
مطيَّهم	99	04	مطيُّهم
تهلَك	99	04	تهلِك
إذا	99	13	إذْ
ينفجر	100	12	يتفجّر
المرامي	112	04	المرام
سَقَامَا	94	09	سِقاما
مفتخرِ	95	08	مفتخرُ
منتشرِ	95	11	منتشرُ
بيت سقط:	31	07	لم تصف لي بعد وإلا فلم لم أر في عنوانها جوهره
كلمة سقطت	106	05	روض الربى فوحًا وغصن....

الفهـــــرس

الموضوع : **الصفحة:**

مقدمة ..... أ- ب- ج- د

مدخل : المعتمد بن عباد حياته و ثقافته..... 1- 10

*- مولده و نسبه 01- 02
*- بيئته 02- 03
*- الأسرة الشاعرة 03-04
*- المعتمد ملكا و فارسا 04-06
*- شاعرية المعتمد 06-08
*- الزلاقة نصر و انكسار.....09- 10

الفصل الأول : غزليات المعتمد 11-34

الغزل عند المعتمد بن عباد 15-33
1- الغزل العذري 16-19
2- الغزل الماجن 19-21
3- الغزل العادي 21-33
أ- المرأة و الطبيعة 22-24
ب- الغزل و الحماسة 24-26
ج- المعتمد و الزمن 26-28
د- المعتمد و الأعداد 28-29
ه- المعتمد و الخمر 29-30
و- الأسماء في غزل المعتمد 30-33

الفصل الثاني : أسريات المعتمد 71-35

1- شعر الغربة في الأندلس 39
2- المعتمد شقي الغرباء 71-40
2- أ – الزلاقة بداية النهاية 41
2- ب – التجربة الشعرية 71-41
2- ب –1 – غريب المغربين 47-42
* - بلاط الشعراء 47-45
2 – ب – 2 – غربة المكان و قسوة الزمان 60-48
* - المكان غير المكان 49-48
* - شكوى الزمن 51-49
* - لا سبيل إلى الصبر 55-51
* - اللجوء إلى الرحمن 57-56
* - التسلي بالمناجاة ..... 57 -58
* - الرجولة الحقة ..... 58 –60
2 – ب – 3- الماضي و الحاضر : المعادلة الصعبة 67-60
*- كرم و فروسية 64-61
* - الملك ، القصور و الليالي الملاح ..... 64 -66
* - كنت بالعيد مسرورا 67-66
2 – ب – 4 – المعتمد و أبو فراس الحمداني ..... 68 -69
2- ب – 5 – قبر الغريب ..... 69 -71

الفصل الثالث : متفرقات شعرية ..... 72 -96

1- الخمريات 78-72
2- المدح 83-79
3- الوصف 88-83
4- الفخر 93-89
5- الاعتذار .....94 -96

الفصل الرابع : السمات الفنية 122-97

1- المستوى التناصي .....102 -97
2- المستوى اللغوي الجمالي 122-102
أ- البيان 109-103
- التشبيه 106-103
- الاستعارة 108-106
- الكناية 109-108
ب- البديع 113-109
- المحسنات المعنوية 111-110
* - التقسيم 110
* - الطباق 111-110
- المحسنات اللفظية 113-111
*- التطريز 112-111
* - الجناس 113-112
ج – الإيقاع 120-114
1- التكرير الصوتي القفوي 115-114
* - الترديد 114
*- التعطف 115-114
2- القافية 119-115
3- البحر.....120-119
د – الحوار 121-120

خاتمـــــــــة.....124-123

فهرس المصادر و المراجع.....125 - 136

فهرس الموضوعات..... 137-139